العودة والتماثل

رواية



تأليف

إيهاب فاروق حسني

هي رحلة عقل من معايشة واقعه

بكل ما فيه من مثالب ..

فعاد بالحلم إلى زمان بعيد بعيد ..

عاد هو يحدوه الأمل في إدراك الأفضل

المؤلف

العَودةُ والتماثل

العَوْدَة والتماثُل

رواية

تأليف

إيهاب فَاروق حُسْني

إلى الفَراشَاتِ اللاتي تُحلّقنَ في سَمَائي ..

إلى زَوجَتي و ابنتَيَّ ..

أُهدِي هَذِهِ الأحرُف من نَبضِ القَلبِ ..

إيهاب ،



الإنفصَالُ المؤقّت

أحسُّ كلَّمَا سكنْتُ إلى وحدتى المُستحبة ؛ تلك التى تعْزلنى دائماً ، بأنّى قَدْ أتَيت من زمنٍ بعيدٍ ؛ زمن غير زماننا الّذى نَعيشه : المظاهر فيـــه تَختَلـــف ، الحياةُ فيه تَختَلف ، و النّاس غير النّاسِ ..
شئٌ ما بين جُدْرانِ ذلك المكان يَحْتوينى ، يعْتصرنى ، يَنْتَشلنى مــــن عـــالمِ المحسوساتِ إلى عالمٍ لا يتم التلاقى فيه إلاّ..
تُرى أىّ روْحٍ تلك التى تَجْتَذبنى إليها بقوةٍ إنجذابى إليها؟ هل يحدث ذلك حقاً ؟ .. نعم ، مِنَ الممكن حدوثه ، فقط ، عندما أُغْمِض عينــــىّ المتعبتــين هكذا..
عِنْدئذ يَتَحوّل كُلّ شئٍ مُدْرَك بالتدريج إلى ذلك العالم الأخر..

• **فيما يلى ذلك**

• التلاقى و الإمتزاج

.. و فى أثناءِ التصاعد المؤقّت ، أشاهد طاقةً من نورٍ علوىّ ، بعيدةً، لكنّهــــا تَدْنو منّى بقوةٍ ، و تَدْنو أكثر . لا أستَعصِىعليها ، أُنجذب نحوها أكثر و أكثر. شئٌ ما يُعْلمنىأنها تلك التى احْتَوتنى من قبلٍ . لَقَدْ ظَلَلـــت أبْحَـــث عنهـــا طـويلاً، و مع بداية الرّحلة، وجدتها ، هِىَ هِىَ ، نَفْس الطاقة النورانية الجذّابة ، تحاول أنْ تأخُذ بيدىّ إلى عالمٍ ما كان لى صلة به فى الأمسِ ا لبعيدِ ، أحـــسُّ الأن بأنّها أقرب ، أنا أعلمها ، كيف حَدَث ذلك ؟ ..

قوةُ غير محدودة قَدْ أذابت كُلّ الحواجز بيننا ، كُلّ شيء قَدْ صَارَ معها ممكناً .. التلاقى يقودنى فجأةً إلى معرفة عُمْرها مئات السنين . و الإمتزاج يُزيل الظُلمة بالتدريج ؛ لِيَكشف عن أحداثِ ما قد فاتْ ، و يفتح عينىّ على مـــن كنـــت أجهله قبل الأن ..

قلت : نور الدين ؟

قال : أجل ..

قلت : حدّثنى عن أيامك و ما كانت عليه ، عندما رأيتَ النور بقلبك فعشت له

قلنا : سنعود ..

الصورة الأولى

القائدُ فى إنتظار الغَد

يتماثل فوق قمة تلٍ من تلال حلب القديمة فرسٌ أبيض رشيق . يعلوه هو ؛ فارسُ أسْمر ، يبدو مستوى القامة فوق صهوة الفرسِ، كأنّهما قَدْ صَارا قَـــدّاً من كتلة متماسكة . شديدُ فى غير ضعف ، يُرْسِل شعاعَ عينيه الحادتين عـــبر المنحدرِ ؛ كأنّه يَخْتَرِق أغوار الغَيم اللانهائى . بَيْنما الشّمس توشك علـــى المغيبِ . ولا تزال تلك الهالة النورانية تنبعث حوله .. ممتدة إلى ما لا نهاية..

الصورة الثانية

يدّ الغدر تغتال الأصل

فى تلك الليلة المختلفة ، لم يَسْعَد عماد الدين بالنـــومِ الهنيئ ،و ظَلّ متيقظاً

طوال ليلته تلك ؛ كان الفكر يؤرّقه بقسوة ، فقد استَشْعر الحدث قبل وقوعه وأحسّ أنّ زَفَرَاته قَدْ باتت معدوداتْ ، و أنّ أخـــر أوراقــه قَـــدْ ذَبُلَـــتْ ، وأوشـــكت على السقوط. وفى ذات الحين ؛ خرج بضعٌ من الآثمــــين مـــن أوكارهم السرّية، تسللوا إلى حيث يربضْ الأرق فى جفنىّ الرجل ، أخـــذوا يحوّمون حول مضجعه مثلما تحوّم الذئاب حول فريستها ، و لّما تشمموا رائحةً طيبةً تنبعث إليهم من خلال عَقِب البابِ الموصد ، إنقضّوا فجأةً .. ووقعـــت المشـــيئة ..

نور الدين يتسلم الخاتم

ماكادَت عيناه تُبصران ذلك الجسد الممتد فى سكونِ الموت الجميل ، حتّـــى انْفَرطت منهما دمعتا الفـــراق ، ثم قال نور الدين بصوته المتحشرج ، وكأنّه قد غُلّ بقيودٍ غير مرئية :

* أبى ! يا مَنْ ولدتنى إلى هذه الدنيا بكلِ ما فيها ، و عَلّمتنى، ولو أن ذلك لوقتٍ قصير رحلتَ بعده ، و تركتنى ، أقسم ألاّ أتخاذل فيما آليتَ نفســـك عليه ، و عهدى لك قاطع ؛ أن أحارب قاتلوك حتى الفناء ، ليـــس لإنهـــم كذلك .. و لكنّ دافعى ، هو هو ، دافعك الذى عشت حياتك من أجـــله ، وفنيت فى سبيله..

ثم أطرق عن الكلامِ فجأةً ..

عندئذ ، حدّثه أسد الدين ، و كان فى حديثه يتأوه تأوهاً مكتوماً ، إذْ كـــان يقول :

* أَىْ نور الدين ! يا سليل الخير ، إننا وراؤك ، فرداً فرداً ، يدك التى تضرب بها أعداءك ؛ فتجد نتاجها ثمرةً طاهرةً .

ثم أمْسَك بمنكبي نور الدين ، و هزّه بقوة ، و هو يقول :

* إيّاك أنْ تتخاذل ! فإن أعناقنا بين يَديك أمانَةً .

دَنَا من الجسدِ الساكنِ فى هدوئه ، وانْتَزع خاتماً ثقيلاً كان فى الأوسطِ مـــن اليدِ اليسرى ، و أخَذَ يتأمله ، ثم قَدّمه إلى نور الدين الّذى قَطَع العهد علـــى نفسهِ تواً ، و قال له بإصرارٍ :

* إنّه خاتم من يحمل الأمانة فينا ، خُذْه ، فإنّك أولَانا به.

لكنّ نور الدين السبّاق إلى الخيرِ دائماً ، أومأ برأسه تفهماً ، و قـــال بلهجـــةٍ صارمةٍ ، و عيناه البرّاقتان تستدعيان الأمل العزيز :

* أقسم على ذلك قسماً لا حنث فيه.

الصورة الثالثة

إجتماع مُصغّر

و فى الطريقِ المتعرّج المُتدحتّى الرّها * كانت قوة هَزيلة من الجنودِ تُمْســـك عن السيرِ المميت ؛ تلبية لأمرِ قائدهم جوسلين – المشـــــاكس دائمـــاً – ذى القلب المتحجّر ، الّذى يَحْمِل فى سَرِيرَته حقداً قديماً قديماً ..

و قَدْ الْتَقى آنئذ ، و كان المساءُ يفرِض سطوته فى أنحاءِ المكـــانِ ، بالبـــائسِ بلدوين ؛ سَيّد مرعش و كيسوم ** ، و انْفَردا بنفســـيهما داخـــل خيمـــةٍ منزويةٍبغايةِ التدبّر و التشاور ، و قد سُمع صوت جوسلين المتناهى كأنّه خوار

---

* إحدى بلاد أرمينيا وقتذاك .

** إحدى مدن سوريا الصغيرة .

الثور ، و هويقول:

* أنا الكونت الأصيل بالرّها ، لم أنسْ ذلك يوماً ..

ثم جَرَع من قَعْبه جَرْعةً كبيرة أغرقته ، و أضاف و هو يمسح المشروب عـــن فمه:

* لقد حالفهم الحظ كثيراً ، هؤلاء ال..

ثم جَرَع مرةً أخْرى و هو يقول :

* عماد الدين ! ذلك الدّاهية ، لقد استغل فرصة خروجى من حدود إمارتى ، ثم باغت المدينة ، و أخذها عنوةً .. و منذ ذلك الحين ، لم أتمكن من ردّها ، و إلتجأت غصباً إلى تل باشر *. تلك هى الحقيقة أيها السيد بلدويـــن ، أنـــا أحقّ الجميع بالرّها ، وزوال عماد الدين يفسح الطريق إليها من جديد .

فتحدّث بلدوين بصوتهِ النّاعمِ الّذى يُشْبه صوت النساء قائلاً:

* لكنّك لم تحدّثنى بعد ، يا كونت جوسلين ، عن خطتك للإغارة على الرّها، أنا أخشى ألاّ نتمكن من ذلك ، فحسبما علمت من قول قاله الكونت ريموند، أمير أنطاكية ؛ أنّ النورانيين لا يُمكن خداعهم بتلك السبل ال .. ساذجة .. أعنى .. أن لديهم استخبارات مُحْكمة فى كُلّ مكانٍ .

إلاّ أنّ الحلم القَديم الّذى يراود جوسلين قَدْ عصّب عينيهِ عن الرؤيةِ الواضحة، فثَارَ بغَطْرَسته المعهودة فيه ، و هو يصيح:

---

* أحد تلال سوريا .

* إنَّه جَبَان ! ذلك الكونت المنحدر من سلالة متدنّية . لن أغفـــر له تخـــاذله فى معاونتنا . إنَّ سلوكه ذلك لا يَعْنى سوى أنَّه يبحث عن مجـــده الذّاتى ، و لا يعنيه غير ذلك .

ثم دَنَا من بلدوين تماماً ، و قال بصوت ملْتوى النّبرات :

* أنْصتْ إلىّ ، أيها السيد بلدوين ، لقدْ دبّرتُ لكل شئٍ بإحكامٍ ، و اتّصلت بعملائى من الأرمن هناك ، إنهم يريدوننا ، نحن ، و لا أحد غيرنا ، لذا سوف يساعدوننا .

فرّد بلدوين قائلاً :

* طَالَمَا أنَّك تمتلك رؤيةً واضحةً ، فلا مانع لدىّ من مصاحبتك إلى هناك .

فنهض جوسلين فجأةً ، و قال بلهجة تقريرية :

* دَعْنَا نَرْحل .

ثم إعتلى صهوة جواده ، و انطلق مسرعاً ، فبدا وكأنَّه يَسْتَبق الرّياح ..

ثم مَضَى بلدوين فى أثره ..

و تَبعَهم الجنود..

و عندما غَابَ ضوء الشّمسِ الخافتِ ، كانوا يتقدمون بإصرارٍ عنيد ..

عَوْدُلذىبدء

حَديثُ مُزدوج

أقول أثناء تلك المشاهدة الدقيقة لما فاتْ :

* لقد رأيت مثلهماكثيراً ، إنَّ زمنى يضجُّ بأمثالهما ، و لكنَّ الأسلوب يختلف

فيردّ نور الدين بحكمته قائلاً :

* علمت ذلك ، أم أنّك نسيتَ ؟

* نسيتُ ماذا ؟

* نسيتَ أنَّ الأرْواح تعلم ما لا يعلمه الأحياء.

قلت:

* الأحياء يعلمون لكنَّهم يتجاهلون الكثير .

قال:

* النورانيون هم الّذين يعلمون ؛ فالعلم لابدّ أنْ يَنْبُع من القلبِ .. هنا .. و أشار إلى صدرهِ ..

فقلت بيأسٍ :

* زمنى غير زمنك .

قال بنفسِ الصوتِ :

* لِكُلّ زمانٍ سُبله ، لكنّ الهدف واحد .. لا يتغير .. و التجرّد من أهمّ دواعى الإستمرار .

فسألته برغبةٍ فى المعرِفةِ :

* كيف ذلك ؟

ردّد:

* الرّاعِي العارف بشتىّ السبل .

ردّدها أكثر من مرةٍ .. بينما أصختُ له السّمْع ..

ثم أطرق طويلاً .. و هَمَس بعد ذلك ، دونما أنْ يلتفت إليّ :

* أنظر بقلبك ، لعلّك تستوعب ما قَدْ فاتك .

فإنصهرتُ بكُلّيتى فى تأملٍ طويل..

الصورة الرابعة

عند أسوار حلب

هكذا، شقّ الرّسول القادم من الرّها طريقه إلى قلبِ حلب ، كـــان ممتطيــاً جَوَادَه ، و كأنّه مُسْتَحْكم فوق سحابة مارقة بسرعة قُصْوى ، فلم يتمكـــن الحَرَسُ من إدراكه إلاّ ممتثلاًبين يدىّ نور الدين دَاخل مُعَسْكر الجنـــد المعـدّ لمواجهة ريموند الأنطاكى - الّذى أغَار من خارجِ أسْوارِ حلب - وما كـــادَ الرّسول يَبْلغ خيمةَ القائد حتّى ترّجل مسرعاً ، وهو يصيح:

* أيها القائد ! لقد تمكن جوسلين من الإغارة على الرّها بقواتـــه الصغـــيرة ، وشقّ طريقه إلى قلب المدينة بمساعدة الأرمن و اليعاقبة .

ثم أطرق للحظات جَعَل يستردّ أنفاسه المتلاحقة خلالها ..

وعلى الرُّغمِ من الذُّعر الّذى شَـــمَل نور الدين حتّى كادَ أنْ يشلّ تفكيره ، إلاّ أنّه قَد تمكن من السيطرةِ على أمرهِ ، فلم يُمْهِل نَفْسه ، و وثَـــبَ فـــوق صهوةِ جَوادَه وثبةً متمكنةً و هو يردّد:

* الويل لهم جميعاً !

ثم انطلق بفرسه إنطلاقةً أحَالتِ الزّمن إلى سهمٍ بين يديه..

مباغتة

و بَيْنما كان الليلُ يَحْتَضِن الكونَ بغشاوته ، أخَذَتْ الرَّهبــة المعهــودة فــي التضَّخمِ ، حتّى ضَاقَت بها مَكامِنُها ؛ لتَنْفُذ منها خِلْسَةً إلى أصحابِ الصدورِ الواهنة ، و تُبيتُ الآثمين في أوكارهم بعيداً عن النور ..

وقتئذ ، باغت النورانيون قوات الفرنج من خارجِ أسوار الرّهــا ، و أثــاروا الرَّهبة في قلوبهم .فما لبثَ جوسلين يتدارك حقيقة الخطر المحــدق بقواتــه ، حتّى لاحتِ له شياطين الأحلام ؛ لتُزّين الحلم الرابض في صدرهِ منذ سنواتٍ خَلَتْ ، و تَبْعَثه إلى الحياةِ من جديد - الرّها الحبيسة في رأسهِ - ياله من حلمٍ عزيزٍ على نفسه ! .. يرغمه على البقاء فوق الأرض التي لازَال يَصْبو إليها ..

لكنّ بلدوين قد صَــار متردّد النفسِ ، غير متماسك ، إذْ أنَّ حلم جوسلين ، و نصرة الصليب - وكل هذه الأشياء - لم تعد ذات قيمة بالنسبة لما يتمتع به من حياةٍ ، حتّى المجد الفردى لا قيمة له إذا ما قورِن بحياةِ المرء كثمنٍ له .

لكل ذلك ، آثر بلدوين أن يتحدث إلى جوسلين حول الإنســحابِ السّــرى أثناء الليل ، فقال له و الشُعور بالمرارة يملأ كلماته المتوترة :

* أيها السيد جوسلين ! لقد َصعُبَ علينا المقام هنا ، نحن محاصرون تماما ، و إنّ ذلك لا يعنىغير قُرب النهاية .. نهاياتنا جميعا .. و أنا لســـت مقــامراً بحياتىحتّى أُدفع إلى الموت المُبكّر .

فقال جوسلين بغضبٍ غير ظاهرٍ :

* ألا تدرى أنَّ الحرب قد جُعِلَتْ للرجال دون سواهم ، فمـــا دام الخـــوف يسيطر عليك مثل النساء ، فلترحل ، لا حاجة لى بك .

فأجابه بلدوين بيأسٍ و انكسارٍ :

* لست أجد منفذاً لذلك .. نحن محاصرون من كُلِّ جهـــةٍ.. و إنْ لم نجــد مخرجاً ، سنهلك .. هنا .. لا أريد أنْ أموت .. أتوسل إليكَ !

لكنّ شياطين جوسلين لا زالت تعبث بخياله الأسير ، فإستمالته للحظاتٍ إلى ذِكْرَى استيلاء عماد الدين على الرّها ، فألْهَبت شعلة غضبه ..

فقال بصوتٍ رخامى مجرد من الحياة :

* ربما أنّك على حقٍ يا سيد مرعش و كيسوم !

ثم نهض كتمثالٍ ، و أخَذَ ينظر إلى بلدوين من أعْلَى ، و أضاف :

* لا يجب أنْ نَدَعِ لهم الفرصة للقضاء علينا ، الثأر لم ينتهِ بعدْ ..

و مع إنطفاءةِ أخرِشموع تلك الليلة ، و نزول السكينة على قلوبِ النورانيين ، بدأ جوسلين و قواته و بعضُ من التابعين من الأرمن و اليعاقبة فـــى التســـلل عبرأسوارِ المدينة إلى جوفِ الصحراء الرهيبة ..

معركة غير متكافئة

هَكَذَا ، تمكن جوسلين و حلفاؤه من الفرارِ الثّمين ؛ الّـــذى مَنَحهـــم أمـــلاً جديداً..

و قَدْ مَضَى فى سَيْرِه على رأسِ السائرين فى سكونٍ ، يخشون مَـــسّ الأرضِ بأقدامهم فينتبه النورانيون إليهم ، و يُدركون بمرهفِ حواسّـــهم الطـــريق الّذى اختاره الفارّون . وكان من بين الفارّين بصحبة جوســـلين - بإستثناء

بلدوين – الذى يلازمه كالظلِ ؛ رجل أشيب اللّحية ، يرتدى أرديةً ســـوداء فضفاضة تكاد أطرافها تُلامِس الأرض ، بَيْنما يضع فوق رأسه عمامة سوداء، وهو رجل كثير الثرثرة فى غير حكمة . أمّا الأخر ، فيبدو أشدّ بنيـــةً مـــن قرينه، ودونه فى العمر ، و يرتدى نَفْس الرّداء . غير أنّهما لم يُمْسكا ثغريهما عن الحـــديث المطوّل ، و لم يكفّا عن الشكوى كُلّما شَدّ عليهما التّعب وشَقّ السفرُ.. ومع إنحدارِ ذلك النّجم المتألّق جهة المشرق ، كان النورانيون يلْتَهمون الطُرق بجيادهم المطهّمة بالشجاعة ، بَيْنما أسلحتهم تتلألأ كُلّما انْعَكَسَـــتْ عليها أشّعة الشّمسِ ، فبدوا كقطعِ الألماسِ المتنـــاثرة فـــى أنحـــاءِ الصحـــراء اللانهائية..

و كما تهبّ الرّياح الشتوية لتوقع الرّعب فى النفوسِ السقيمة ، إنقضّوا على أعدائهم ..فما أحسّ جوسلين المتحجّر إلاّ بتلك الهالة النورانية مُحْدثةً هـــزّةً مفاجئـــةً فى صفوفِ أتباعه ، فأودت بتوازنهم ، فوقعوا فى مأزقِ التفكك .. وانْصَاعوا إلى رغباتهم الغريزية فىالبحثِ عن ملجأٍ يقيهم شرّ الفناء إلى الأبد.. و من وسطِ مَعْمَعةِ الصرخات المتصاعدة فى عنانِ السّماء ، و رنين السّـــيوف المصطّكة بعضها ببعضٍ ، و صَفير الرّماح المتطايرة فى الهواءِ ، إنطلق صـــوتُ جَهْورى :

* تَقدّموا ، اللعنة أيّها الفرنج ، تَقدّموا ..

لكنّ نورالدين ذو اليقين الّذى لا يتزعزع ، تمكن ببراعةٍ من تحديـــد مصـــدر الصوت المتفجّر ، الكريه إلى نفسه ، و انطلق بفرسه وسط الميدان مثلما ينطلق شهاب من السماءِ ، و سَيْفه ضارب فى الهواءِ .. و بضربةٍ موجهة منه فى قوةٍ

غير متناهية ، تصاعدتْ صرخةُ من جوسلين عبر الهواءِ ؛ لتُزَلْزِل نفوس أتباعه ، الذين شاهدوه بدهشة عَقَّدتْ حركتهم ، وهو يرتجف فوق جَوادة إثْر تلـــك الضَّرْبة ، و الدّماء تسيل بغزارةٍ حول عُنقه الجريح ..

عندئذ ، استَشْعر النورانيون حلاوة النصر ، فشدّ أحدهم قَوْسَه و ألقى بسَهم ثمين عبر الهواءِ .. ليستقر فجأةً فى صدرِ بلدوين .. ليَهوى صَريعاً .. فتدْهَسه الخيلُ بحوافرها بلا تمييز ..و تبعثرت قواتُ جوسلين بحثاً عن الفرارِ الثّمين ..

و هَكَذَا ، بَدَتْ المعركة غير متكافئة ..

و خيّم السكون على المكان لفترةٍ قصيرةٍ ، لم يقطعها سوى الظهور المفـــاجئ لنور الدين وسط ميدانِ المعركةِ و هو يصيح :

* لقد فَرّ جوسلين ..

ثم استدار بفرسه ، و انطلق عبر السهلِ المنحدرِ ..

العودة إلى الرّها

لم يشعر نور الدين – رُغم النصر – بالرّاحة الأثيرة ، إذْ تضخـــم الشـــعور بالغضبِ فى صدره حتّى تشعّب فى أنحاءِ جسده ، وأمْسَى كالقدرِ الممتلـــئ بالماءِ فوق فوّهةِ الموْقد المُلْتَهب ، تملأه الرّغبة فى صَبّ جَام الغضـــب علـــى رُءُوس أولئك الخونة ؛ الّذين آثَروا لأنفسهم حياة الذُّل بعد ما رأوه من الحياةِ الكريمةِ فى ظلّ عماد الدين ، الرّجل الّذى منَحَهم من العزّة ما يَجْذب إليـــه حَنين الأبالسة ، لكنّ الّذى حَدَث غير ذلك ، فقد انْقَلبوا على أعْقَابهم بمُجرّد زواله ، و ظَنّوا بذلك أنّهم قد تَحَرروا .. و أصْبَحوا بلا قيدٍ ..

لقد أصرّ نور الدين ألاّ يكون بهم رحيماً - على غير عادته - و تفجّر البركان المتّقد فى المدينة بلا هوادة .. فأحالها خراباً ..

بدون عَوْدٍلذىبدء

توحّدٌ كُليّ

و إذّاك ، جَذَبتنى هالة ضوئية بعيدة ، من ركنٍ قَصيّ ، مُزْدَهرة وسط ظلمة الليلِ ..و قد بَدَا نور الدين المتدثّر بالنورِ فى جلْسته مُنْفَردا بسكونِ المتأمل فى أحوالِ ذلك العالم . فما كِدْتُ أدركه حتّى نَمَا إلىّ صوته ، مجوّفاً حزينـــاً ، كأنّه الخواء فى قلبِ الصحراء الغير متناهية ، و لا زالت الكلمـــات تـــتردد متلاحقةً :

* ما أتعسك أيها الإنسان ، أنت تغتر بنفسك غرور الشياطين بأنفســـها ، لكنّك لا تملك لأمرك شيئاً ، لقد وهبتَ العقل و الحكمة النابعة منه ، وهبتَ البصر بنوعيه ، و لكنّك لا زلت أعمى ، آثرت أن تكون جاهلاً ، و عشقت الظلمة فى نفسك .

ثم أطرق للحظاتٍ غلاظٍ ، و أرسل تنهدةً كادتْ أن تشقّ القلب الكامن فى صدرى ..

فقلت له :

* ما بك نور الدين ؟ أراك حزيناً على غير عادتك .

فقال بحكمته العميقة :

* كذلك التأمل فى الحياة يزيد أوجاع كل لبيب .

فقلت :

* كل شئ ظاهر ، تلك هى سُنَّة الحياة .

فقال و هو يدنو منى بقوةٍ :

* السُنَّة ما لا نستطيع مخالفته لصحته ، و لنقل إنَّ ذلك هو الخروج عن سُـــنَّة الحياة .

عندئذ ، كان نوره قد تَخَللنى تماماً ..

فقلنا :

* إننا نَشِتُّ عن منهجٍ الحياة .

و نظرت فيه نظرةً قارئةً ، ثم صحتُ بصوتٍ أخذ صداه يتردد:

* دعنى أعيشك تماماً .

رؤية خلفية متأخرة

و حينئذ ، أخذتنا سحابة من نورٍ بارقٍ عبر زمانٍ بعيد بعيدْ ، فما كدت أدرك شيئاً غير أننا نَغُوص خلال ظواهر شتّى ..

و فى أقلّ من لمح البصر ، كنّا واقفين فوق أرضٍ غريبة، لم أشاهدها قبل الآن. لكنّ نور الدين المتأمل فى كُلّ شئٍ قد تمكن من قراءةِ إندهاشة عينىّ ، فمـــال نَحْوى بإبتسامةٍ نورانية ، و هَمَسَ مُستَفسِراً :

* ما بك أيُّها القرين ؟

قلت :

* أستشعر الخير القريب .

ثم شردتُ قليلاً فى لا شئ ، و أضفت :

* و لا أدركه !

فقال :

* حَدْسك طَيِّب ! إنَّها أرض طاهرة ، لكنّ الخبث يعشش فى ثناياها .

... و جَلَسْنَا ساكنين فوق تلٍ قريب ..

لست أدرى كم من الزمنِ مَضَى علينا فى جلستنا هذه : ربما ساعةً ، ربما يوماً، ربما عاماً.. المهم ، أنه عندما جَذَبنى من يَدِي ، كنت أشاهد موكباً ضخماً من جنودٍ لم أحدد هويتهم . بينما تتوسطهم ملكة مهيبة المظهر ..

فقلت :

* تبدو كملكاتِ الزمنِ القديم !

فقال :

* هى ميليسند ، الملكة الغير شرعية ببيت المقدس .

قلت بلهفةٍ :

* أرغب فى الإنصات إلى ما تقول !

قال :

* لا ، لايمكنك ذلك ..

ثم ضرب على يدى بإبتسامة شفّافة و قال :

* سأقصُّ عليك الّذى حَدَث .

ثم أطرق للحظاتٍ ، بدا خلالها كمن يستَحْضِر شيئاً من يمّ الذّاكرة ، و قال بهدوءٍ شديدٍ :

* عندما حَرَرَ أبى مدينة الرّها . ثَارَتْ ميليسند ثورتها تلــــك ، وأرسَـــلت سفارة إلىأنْطَاكية لإسْتشارة حكومَتها هناك ؛ بشأنِ ارسال حملةً لغزونا بعد مباركة البابا أوغانيوس الثالث ..

صورة مُتمّة

عندما لَمْلَمَتْ شَمسُ ذلك النهار خيوطها المتبعثرة هنا و هناك ، كان ذلــــك الأسْقفُ المارق مثل نيزكٍ منفلت قد وصل إلى المقرّ البابوى فى روما ، آتياً من أنطاكية ، و ما كادَ جَوَادَه الأسْود كظلامِ الليلِ يُمْسِك عن ســــيره ، حتّــى انزلق هيو من فوقه و عَدَا والجاً إلى الكاتدرائية الكبرى ، حيث مكثَ البابــــا أوغانيوس فى انتظاره .أوغانيوس ذلك الرّجل الّذى يُشْبه جبلاً من الجليدِ فى هدوئه المتناهى ، لكنه ما كاد يَلْمَح هيو أثناء دخوله فى خشوعٍ مفرطٍ حتّـــى ذاب ، و صَاح :

* هأنتذا قد وصلت ، أخيراً ، أيُّها الأسقف هيو العزيز ! لعلَّك تحمل إلينا أنباءً سارةً على غير عادتك .

فأبدى هيو – المستسلم تماماً – إنحناءة تحيّة طائعة ، حتى أوشك جبينــــه أنْ يُلامس قَدَميّ البابا ، وهو يقول بصوت بالكاد يُسْمع :

* أيُّها الأب الكريم ! ليس الأمر بما يَجْلب الخير .

فتصلَّب أوغانيوس فى وقفته ، ثم قال بصوت باهتٍ :

* قُلْ ما جئت من أجله ، فالأمر لا يحتمل معى صبراً .

و مثلما يتدفق الوِدْقُ كثيفاً من السُّحبِ ، خَرَّت الكلمات من بين شفتى هيو آسرةً أذنى أوغانيوس ببشاعتها ، حتى أثارت صدره المفعم بالغيظ الأحمر ..
و لست أدرى ما الّذى حدث بعد ذلك ، فقد شَرَدْتُ رُغم إرادتـــــى ، و لم أستوعب كلمةً واحدةً . فلا زِلْتُ أسير عالمى ، و الأمر هناك لا يختلف كثيراً، ربما أن الّذى حدث هنا يتكرر هناك بصورةٍ أكثر بشاعة .
هكذا هَمَست لِنَفْسِى..
و نُبِتُ فجأةً على صيحةٍ متفجِّرة فى عنانِ السماءِ :
* أنقذوا العالم الغربى !
كان أوغانيوس الثالث ماثلاً قبالة الكاتدرائية مثل طوفان الجحيم الملتهـــب ، يفرض على أوروبا بأسرها الواجب المقدس . بَيْنما أخَذَ القديس برنارد يَنْزِع أرديته الخارجية قُبَالة دير كليرفو و هو يردّد :
* إصنعوا منها صلبانكم .
و المحتشدون من الفلاحين ، و المساكين ، و الفقراء ، قد وقفوا جميعاً ينصتون و يتصايحون :
* أعطونا الصلبان ..

فيما يلى ذلك

صورة عابرة

جَلَستُ متكوماً بكآبتى فوق صخرةٍ قديمة تطل على ساحةٍ واسعةٍ ؛ أشاهد نورالدين و هو يطوى فرسه ببراعةٍ ، يَلْكَزه بقدميهِ .. فيحمله الفرس كنسمةٍ

عابرةِ خــلال الســاحةِ ، و يتوقف فجأةً ، و يلتّف كثعبانٍ يلحق فَريستَه ، وينطلق فى الإتجاه المعاكسِ . فيميل نور الدين جهَة الأرضِ ، و يضرب بعصاه كُرةً ساكنةً تماماً ، فتتطاير فى الهواءِ .. لكنّه لا يمهلها ، فيعود إليها و يضربها من جديد ..كادَ ذلك أنْ يُنْسِيَنى حقيقة نَفْسى و همُومى و زَمَنى .

الصورة السادسة

فى ديوان الحكم

عندما خَرَجْنَا من المسْجدِ ، كان الصباحُ يتنفّس أنسامه الأولى . فنظرت فى هذا الوجه النورانى ؛ يبدو نحيفاً ، لكنَّ القوة تنبعث من بين ثناياه ، قوة غير عادية .و مَضَيْنَا معاً إلى ديوانِ الحُكمِ ، حيث يُمضّى جُلّ وقته ، و هنـــاك ، جلستُ ساكناً إلى جوارهِ ، و أسْلَمتُ نَفْسِى للسكينةِ ، و غفوتُ ...

فى الحلم

رأيتُ فيما رأيتُ ؛ أنّى نور ، أسّير فى طريقٍ مظلمٍ شديد الوعــورةِ تَغْمــره الأشواك، و كُلّما سرْت أكثر تَدْمى قدماى أكثر ، لكننى ثابرتُ ، و كنــت كُلّما حللتُ بمكانٍ تَنْقَشِع الظُلمة ويَحلُّ النور مكانها،و رُغم ذلك لم أتمكــن من الرؤية الواضحة ،إذْ أنّ السُحب كانت تملأ الأفق على سعته ، وفجــأةً ، سمعت الرَّعد ، و رأيت بَرْقاً فى الأفقِ ،ثم أمطـــاراً غزيرة غزيرة ، فَغَسلَتْ كل شيءٍ ، كل شيءٍ .. و تكشَّـــف لى الطــريق بَعْــد ذلك ، فسرْت ،

سِرْت بدون خوفٍ و لا رهبةٍ ، سِرْت و لم يعرقلني شئٌ ، سِـــرْت حتـــى المنتهى .. و رأيت نوراً في صورتي ، يَلْتفُّ به أناسُ كثرُ ، يمـــدّون أيـــاديهم نحوه، يحاولون التشبّث به ، و هو يمدّ يده إليهم ، لعلَّهم أنْ يمسكوا بيـــده ، ثم..

الإفاقة

أدركت الواقع المرَّ ، فصَرَخْتُ ..

إخترق صوتى أذني نور الدين ، الجالس برفقتي . و كنت قد نسيت وجـــوده إلى جواري ، أو نسيت وجودي في عالمه ؛ لـــذا صرخـــت . فـــإنّتفض ، و تفرّسني بنظرةٍ ثاقبةٍ من عينيه العميقتين كعمقِ البحرِ . سَرَت نظراتـــه فـــي كياني مِثْلَما تَسْرِي الطاقة في سبيلِ النورِ ، سَألني :

* ماذا ألَمّ بك ؟

قلت بشرودٍ :

* إنَّه الحلم يهديني و الذّكرى تؤرّقني .

قال :

* إنَّك كالجمرِ يأكل بعضك بعضاً .

قلت :

* لإنه عالم غريب يأكل بعضه بعضاً .

فَحَدَجني بنظرةٍ لائمةٍ ، لكنّه لم يُعقّب عليّ ..

أضفت :

* لقد تغيَّر شكل الحياة في عالمي ، أجل ، صارتْ شئ أخر ، شئ لايمكنك

أن تتخيله ، صورة مشوّهة لاشباهٍ ، لالا ، ليس من اليسير تصوير ذلك .

فقال :

* بل أعلم عنكم أكثر مما تعلم أنت نفسك !

نظرت إليه بدهشةٍ ، ثم تذكرت أنّه محضَ رُوْحٍ ، و رُغم ذلك لم أمنع نفسى عن الحديث :

* الإنسان فى عالمى شديد الغرور ، و فقير جداً ، غرّه التقدم العلمى الرّهيب، فظنّ أنّه قد امتلك حــقّ السيطرة على الكون ، رُغم أنه لا زال يجهل الكثير . فعلاً ، لقد مللت كل ذلك ! إنّهم يؤمنون بأنّهم أتــوا مــن الفــراغِ ، و أنّ مَرْجِعَهم كذلك إلى فراغٍ .

فقال مستغرباً :

* ياله من عالمٍ شاذٍ .

قلت :

* لابدَّ لكل عاقلٍ من أنْ يكرهه مثلما أكرهه ، نعم أكرهــــه .. لعجـــزه .. أكرهه لغبائه ..و غَمَستُ وجهى بين كفىَّ منخرطاً فى بكاءٍ بلا حدود ..

و دَنَا منى نور الدين ، رَبَتَ على كتفىَّ بقوةٍ أشـــعرتنى بمـــدى ضـــآلتى ، وهَمَسَ بكلماتٍ لا تخلو من العتابِ :

* لكنّه زمنك !

فإرتجف صدرى لقسوة كلمته . فأضاف :

* لا مفرَّ لك منه !

فنظرت إليه صامتاً ، و أطلت النظر ..

فقال بهدوءٍ :

* ليس لنا حق اختيار الزّمن الّذى نعيش فيه ، و لا حق الرّفض ، لكننا نمتلك الحق فى أنْ نَعْمَل ..

ثم أطْرَق ، و أرْخَى عينيه ، و تمتم بكلماتٍ لم أسمعها ، ثم قال لى :

* عليك أن تتحمل أعباء زمنك .

وإذْ قال ذلك ، همَّ بالرَّحيلِ ..

فداهمتنى نوبة من السُّعالِ الشديد . فَخَشِى علىّ ، و حاول مساندتى ، فقلت بإبتسامة :

* لستُ رُوْحاً مثلك .

رَمَقَنى بنظرة شفقةٍ ، و هَمَسَ :

* ليتك تعرف الكثير مما ..

وامتنع عن الكلامِ الغير مباحٍ .

فقلت :

* لعلَّ أنْ يأتى يوم ..

و ما كِدْت أنتهى من الحديثِ حتى دَخَل علينا كبار رجال دولته ، و اتخذوا مجالسهم حوله فى تواضعٍ مفرطٍ .. فإنسحبت بهدوءٍ ..

تمرُّد

فى أثناء ذلك...

عندما غَشيَ الليلُ الكون بظلمته ، و شَرَعَت أطياف الخوف فــــى مناوشــة ضعاف القلوب ؛ وثَبَ معين الدين أنر من نومته الهادئة وثبة فـــزع أفقدتــه توازنه ، فقد عَلِمَ من الرّسول القادم إليه تواً بحقيقة ما حَدَث ، لكنّه لم يكـــدْ يصدّق ذلك ؛ حتى ناوله رسول مجير الدين – حاكم دمشق – رسالةً ختَمها التونتاش – حاكم بصرى – بخاتم اقليمه ، و قرأ ها معين الدين بعناية ..

لقد داهمته المفاجأة بهزّة خَلْخَلَتْ الأرض من تحت قدميه ، فبدا كخرقة باليةٍ، لكنه ثَابَ إلى نفسه بعـــد عناءٍ ، و أبدى تماسكاً مصطنعاً ، ثم قال بصـــوتٍ بَين بَين :

* عُدْ أنت إلى السيد مجير الدين ، و أبلغه بأنّى لن أهدأ حتى أقضى على ذلك المارق بيدىَّ هاتين .

وانثنى فى جلسةٍ منكسرةٍ حزينةٍ يشغلها فكرٌ طويل كتلك الليلة الغبراء .

لقاء فى بيت المقدس

لم تكدْ قدما ألتونتاش الموحلتين بدنسِ الخيانة تطآان أرض بيت المقدس ، حتى خرَجَتْ ميليسند لملاقاته ، و الدهشة تثير نفسها و تشغل فكرها .. و ذهَبَتْ إلى مقر الحكم ، و أمرتْ بإدخاله عليها ..

ولّما بلغها ألتونتاش ، كان منهك القوى ، فألقى بنفسه عند قدميها ، و هـــو يتلوّن كالحرباء ، و أخذ يردد :

* أيتها الملكة العظيمة ! تحية إليكِ مشمولة بالطاعةِ و الولاء .

فملأها الزّهو بنفسها ، و أمرته بالنهوضِ ، فنهض..

ثم أمرَتْ الحَرَس بإنزاله فى مقر الضيافةِ للراحةِ ، و دَعَته إلى حفلٍ راقصٍ أثناء الليل .

أثناء الحفل الليلى

لم يسرِ الحفل مثلما ظَنّ ألتونتاش عندما دُعِى إليه ، لكنّ الذى حدث لم يَدُرْ بخلدهِ . فقد عَمَدتْ ميليسند بفطرتها الأنثوية الماكرةِ إلى إبتداعِ طقساً مـــن الطقوسِ المرّوعةِ ، و غايتها من ذلك هى الهيمنة الكلّية على كيـــانِ الرجـــل البغيض إلى نفسها ، و الغوص فى حقائقِ نواياه . و لم يكنْ ذلك التصـــرُّف وليد إرادتها منفردةً ، لكنها اقترحت الأمر على مجلس المملكة ، و أُقِرّتْ على ذلك ..

كانت القاعة الواسعة حالكة الظلمة عندما دخلها ألتونتاش ، إلاّ مـــن شـــعلةٍ مضيئةٍ فى الوسط ، و أدخنة كثيفة تتصاعد حولها محدثـــةً غيامـــات دائريـــة متتالية. بينما جلستْ ميليسند فى مؤخرة القاعة ، و الوجوم كابوس مخيـــف على وجهها و فى عينيها البارزتين نظرات كأنها الجحيم الملتهب .

لقد شَعَرَ ألتونتاش أثناء سيره الطويل فى الممرِ الطويل المـــؤدى إلى ميليســـند كأنه لاشئ، عَدَم ، و ما كاد يَصِلَ إليها حتى زلّت قدماه ، فهـــوى ،

هوى أسفل قدميها ، هوى و لم ينهض ، إذْ انقضَّ عليه عبــــدان ســـوداوان كسوادِ ليلته ، و هما شاهرانِ سيفيهما فوق رقبته ، لكنهما لم يقتلاه ..

قالت ميليسند بعد صمتٍ :

* إنهضْ ..

رَنَا ألتونتاش إلى العبدينِ بتردد . فتركاه . و نهض .. حتى لاقت عينـــــــاه عينيها، وظلَّ صامتاً للحظاتٍ أخذ يستجمع خلالها شجاعته ، ثم قال صوتٍ خفيضٍ :

* أيتها الملكة ! لقد جئتكِ أطلب العون لا الموت بين يديكِ .

قالت :

* الموت لمن يستحقه .

فنكّس ألتونتاش رأسه ، و قال :

* لست بخائنٍ ، أيتها الملكة !

فإنخرطتْ ميليسند فى الضحكِ ، و قالت :

* ما دُمتَ كذلك ! فلماذا أتيت إلينا ؟

إرتبك ألتونتاش قليلاً ، ثم قال برغبةٍ فى الخروجِ من ذلك المأزق :

* حوران ! ذلك ما دعانى للجوء إليكم .

ثم أضاف بعد صمتٍ حاول خلاله تمثيل البراءة فى نفسه :

* إنّ ما لدىّ من عشقٍ لحوران يغلبنى على أمرى و يدفعنى لعمل أىّ شئ يُقَرّبنى إليها .

فقالت ميليسند :

* أنت تتحدث عن عشقٍ خاص بك ، ولا تقدّر مدى ما نتحمله نحـــن مـــن خسائرٍ و مشقّات ، إنها مخاطرة غير مضمونة العواقب .

فقال :

* أفهم ذلك ، أيتّها الملكة الكريمة !

ثم قال بخبث :

* و أرَى أنَّ لكم فى هذا منفعة عظيمة .

فرمَقَتْه ميليسند بنظراتٍ مستفسرةٍ ، و لكنّها آثرتْ الصمت . فأضاف :

* سأظَلُّ و شعب حوران من النصارى الملكانيين هناك رهن أمـــــركِ . ثـــم سيكون حُكم بصرى خالصاً لكم . فإنْ رأيتِ فى ذلك ما يعوّضكم تكاليف حملتكم إلى دمشق ، فليكن.و سأظلُّ عبداً لكم . و إنْ لم يكن ، أعـــــود إلى حيث كنت .

و إذْ قال ذلك ثم لاذ بالصمتِ . شردَتْ ميليسند فيما قاله . بينمـــا صَـــاح الملك بلدوين الشاب أثناء دخوله عليهما ، و كان قد سَمِعَ حديثهما معـــاً ، قائلاً :

* أيتّها الملكة الأم ! لست أرَى أنَّ فى ذلك الخير لنا .

فنَظَرتْ إليه الملكة بإنصاتٍ . بيْنما أطلق ألتونتاش نظراته السوداء ..

وقالت الملكة : * لِمَ ؟

فقال بلدوين :

* لا يجوز أنْ نقطع الهدنة التى عقدناها مع دمشق ، كما أننا فى حاجةٍ إليها ، لابدّ أنْ ندّخر ما تبقى لدينا من قواتٍ حتّى وصول الحملة الكبرى من روما ،

فَنُصْبح بذلك أقوى .
لكنّ ميليسند ؛ الطّموحة إلى المجدِ الفَرْدى ، لم تَسْتطِع الهَيْمنة على شَـــطَحاتِ نَفْسها ، فأطْلَقَتْ لها العنانَ ..

التَردد الكبير

هَكَذا عادَ برنارد فاشر من بعْثَته الفاشلة إلى دمشق ؛ مُضْطرِباً - علـــى غـــير عادته - مُندهشاً ؛ إذْ أنّه لم يَظُنّ للحظة أنّ معين الدين أُتر قَدْ أمْسَى جَحيماً بإسْتطاعته أنْ يَحْرق كُلّ مَنْ يَسْعى للمساسِ به ..
لذَلك ، فقَد تَزعْزع يقين فاشر فى قُدْرَة مَلكته ، و رأى صُعوبةً فى فوزهـــــا على غريمها فى دمشق ، فعادَ بيقينٍ أخر ، يقين جديد ..
و قد استَشعر بلدوين ذلك ؛ عنْدما رأى بعينيه تلك الصورة الشاحبة لفـــارسٍ تنطق ملامحه بالخزى المنتظر ، فارسُ بدا وجهه ممسوخاً على غير عادته ، قـــرأ الملك ذلك ، لكنه لم يلفظ كلمةً ، بل آثر الإنصاتِ إلى برنارد ؛ الذى قـــال برأسٍ منَكسٍ و عينين زائغتين :
* قال لى أننا تجاوزنا حدود الهدنة المسموح بها ، وأنّ ذلك يمنحه الحقّ فى ..
ثم أطرق عن الكلام ، و نَظَر إلى بلدوين بعينين يُحَمّلهما الولاء ، و أضاف :
* إنّه يُصرُّ على المطالبةِ بألتونتاشِ حيّاً ، يريده حيّاً ، أيها الملك !
فقال بلدوين :
* هل جُنّ ذلك الرجل ؟ إنّ قُوّاته لا تُعينه علينا ! من أين واتته تلك الجرأة ؟
فهزّ برنارد رأسه بالنفى ، و هو يقول :

* لا ، أيها الملك الكريم ! لم يعدْ كذلك ..

فدهشَ بلدوين لسماعه ذلك ، فقال بصوتٍ مضطربٍ :

* لا أكاد أفهمك !

* لقد حَشَد قواتاً تركمانية تُعينه ، كما ..

هكذا قال برنارد ثم سكَتَ فجأةً . فلم يحتمل بلدوين صَمْتَه ، فسأله بلهفةٍ :

* ثم ماذا ؟ ما الّذى دَهَاك ؟

فقال برنارد :

* ثم أنّه اسْتعان بقواتٍ من حلب ، و لست أظنّ أنّ نور الدين سَيخْذُله فى ذلك ، فهو يكرهنا كما تعلم .

ثم أطرق عن الكلام ، و أرسل تنهدةً طويلة أفرغتْ ما بداخلهِ مـــــن الآمٍ ، وأضاف :

* إنّ نور الدين ألدّ عدوّ لنا ، و هو لا يترك فرصةً للقضاء علينا .

فشرَدَ بلدوين قليلاً ، ثم همسَ :

* أكاد أفهمك الأن .

فقال برنارد برهبةٍ ظاهرةٍ :

* إنّ المجد الفردى يتعارض حتماً مع المبادئ المسيحيةِ التى بُنِيَتْ عليها حملتنـــا على المشرق.

فرماه بلدوين بنظرةٍ ساخطةٍ . فلم يُبدْ برنارد تأثراً لذلك ، و قال بثباتٍ:

* ألتمسَ عفوك أيها الملك ، تلك هى الحقيقة .

فدَنَا منه بلدوين ، و رَبَتَ على منكبيهِ بإعجابٍ ، و قال :

* أجل ، صَدَقتَ أيُّها الفارس .

ثم شرَد ..

و إذّاك ، أبدى برنارد إنحناءة فارس لمليكه ، ثم مضَى ..

و ترك بلدوين غارقاً فى يمّ الفكرِ اللانهائى ..

قلق الملكة

عندما علمَتْ ميليسند بتلك الأنباء الغير سارة ، سرَتْ الرّهبة فى كيانها مثلما تسرى الديدان فى الجيفه ، و لم تتمكن من كبحِ جماحِ تلك الرّهبة التىباتتت تؤرّقها ، حتى أوشكتْ على الإنهيار ، لكنّها تماسكتْ ، و حاولت إخفاء مشاعرها ؛ فأبدلتْ رهبتهابصورةِ ثلجيةِ النظراتِ ..

و أصدرت أوامرها بعقدِ احتماعِ طارئٍ لمجلس المملكة ..

أثناء انعقاد المجلس

وقف بلدوين يقول بصوتهِ الهادئ :

* أيّتها الملكة الأم !أيها البارونات الكرام !

... لقد أضطررنا لعقد ذلك الإجتماع الطارئ لإتخاذ قرار هو فى غايةِ الخطورة ..

و إذّاك تصاعَدَت هَمْهَمَات البارونات فى أنحاءِ القاعةِ الواسعة ، غير أن بلدوين أشار إليهم بالسكونِ ، فسكنوا ، و أخذ يُكمل :

* نعلم أنّ الإعداد لتلك الحملة قد كبّدنا أموالاً كثيرةً ، و لا أحد يجهل ذلك ، لكن ما أرغب فى مصارحتكم به ؛ هو أنّ أملنا فى النصرِ إذا خضنا

تلك المعركة قد باتَ أمراً ميئوساً منه ..

و شرَعَ في إبداء الأسباب ..

ثم أضافَ بعد فترةٍ صمتٍ قصيرة :

* و إنَّ ذلك يتطلب منَّا حكمة في اتخاذ القرار .

ثم اتَّخذ مقعده بجوار الملكة ..

فقال أحدُ البارونات :

* إنَّ فيما قلته صواباً ، أيها الملك الشاب !

ثم توالى تأييد سائر البارونات ..

و لَمَّا وجدَتْ الملكة أنَّ الأمر قد صار كذلك ، نَزَلَتْ عن إرادتها ، و أصدرتْ أمرها بالتخلِّي عن تلك الحملةِ المَشْئُومة خشية وقوعِ أمرٍ غير معلومٍ.

غير أنَّ ثائرة رعاعِ الجند المتأهبين لخوض معركةٍ مثمرةٍ على العدو قد ثارتْ ، واستبدَّ بهم الغضبُ المميت عندما علموا بتخلِّي قادتهم عن الحملة ، و اتهموا برنارد بالخيانة فَخَشِيَتْ الملكة من حدوث اضطرابات في مملكتها ، واضطرَّتْ إلى مسايرةِ عامة الجند ، و أطلقَتْ الحملة إلى سبيلها .

عودة سفير دمشق برسالة حلب

عندما آبَ سفير دمشق من بعثته برسالة نور الدين ، كان الصبر يعتصر قلب معين الدين ، و الإنتظار يُذيب كيانه ، فمَا كادَ يرى سفيره أثناء دخوله حتَّى أقبلَ نحوه بحفاوةٍ و شوقٍ بالغينِ ، و أخذَ منه الرسالة ، ثم شرَعَ في قراءتها بصوتٍ مسموعٍ :

* لقد بَعَثْتم إلينا طالبين العَوْن على ما أُبْتليتم به، ولنا فيما يُحزنكم بلاءً عظيماً، و فيما يُفرحكم فَرْحاً مثل فَرْحكم ، و إنّا لا نردّ مؤمناً فى طلب .. فما هو رأيكم إذا كان عوننا لكم على ألدّ أعدائنا و أعدائكم . أمضوا فى سبيلكم ، و ستجدوننا لكم خير مُعين .

و طَوَى معين الدين الرسالة ، و البهجة تشرح صدره ..

الطريق إلى بصرى

مع إنحدار ليل ذلك اليوم المختلف فى مظاهره ، و ميل الشمس المُعْتمة جهة المشرق ، خَرَجَ بلدوين ، الملك الشاب ، على رأس قُوّاته من صليبيي بيت المقدس مُحْدثاً جَلبةً غيرعادية عَبْرَ نهر الأردن فى الطريق المتعرّج إلى الجولان.. و أثناء ذلك السير الطويل ، لم يكن هناك شئ يُعرقل التقدُّم المستمر للخيول المطَّهمة بالزينات الصليبية ، حتى أنّ الجند قد ظنّوا عَجْز النورانيين عن مواجهتهم ، و تمادوا فى التقدُّم بلا مقاومة ، حتى أرهقهم السير المضنى .. ولَمَّا استَشْعر بلدوين حُمَّى الغرور تستشرى بين الجند ، رُغم الريبة و القلق اللذين تمكنا من صدره ؛أمرهم بالتوقف عن السير للراحة .و أثناء ذلك حدَثَتْ المفاجأة ، إذْ انقضَّ الصحراويون و التركمان بَغْتةً على مؤخرتهم ، وعَاثُوا فيهم قتلاً و تخريباً ، ثم غادروا المكان ، و اختفوا من الوادى فى طَرفة عين ؛ مخلّفين وراءهم سيلاً من الدماء المُراقة .

الإستيلاء على بصرى

لم يُبدْ نورالدين اهتماماً بحملة بلدوين البائسة ، فقد سلَّط عليهم من يتولاهم ،

بَيْنما حوَّل وجهته إلى بصرى ، و مَرَقَ بصحبته معـــين الديـــن . وسَـــاروا كالطيفِ عبر الصحراءِ اللانهائيةِ، و لم يعرقلهم شيءُ..حتى بلغوا أسوار المدينة، فلم يجدوا بها حاميةً تصدّهم عن دخولها.و بادرتْ زوجة ألتونتاش بتســـليمها إليهم خشية إراقة الدماء . فدخلوها آمنين ..

التَقَهْقُر

عند حلولِ مساءِ يومٍ جديد ، أمْسَتْ بصرى تطلُّ بعيونها النورانيةِ على قُوّاتِ بلدوين المقبلة بخطواتٍ مدبرة ، و هُمْ يُجَرجرون خيولهم المتقاعســـة مثلمـــا يُجَرجَر العبيد إلى سوقِ الرِّق . فقد أرادَ بلدوين أنْ يدخل بصرى فَيظْفر بشئٍ من حملتهِ ، لكنَّه لم يجدْ سبيله إلى ذلك يسيراً ، و إنَّمَا فناء قُوّاته سيكون ثمناً ، فآثر العودة ..

كانت حرارة شمسِ ذلك النهارِ مُلهبةً ، و يكاد الجفاف يقتل كُلّ شئٍ فـــى الصحراء حَوْلَهم . بَيْنما الصحراويون يسبقونهم بردمِ الإبـــار المتنـــاثرة هنـــا وهناك، حتّى يَسدُّون عليهم سبيل النجاةِ أثناء عودتَهم إلى بيـــتِ المقـــدسِ . والنورانيون يضغطون عليهم عند مؤخرتهم حتّى لا يجدون مأوى يلجـــأون إليـــه..

وعندما أشرفوا على النهايةِ البائسة ، صَاحَ أحدُ البارونات:

* أيُّها الملك بلدوين ! عليكَ بالتماس طريق النجاة .

فَأَبَى بلدوين أنْ يفعل ذلك ، و قال :

* من الأجدرِ بنا أنْ نَعْقد صُلحاً مع نور الدين ، فإنَّ فى ذلك الخلاص لنا .

ثم بادروا بإرسال برنارد فاشر سفيراً عنهم ، لكنَّه لم يُدرك هـــدفه ، و إنَّمَا

طارده أحدُ الرُّماة النورانيين و هو فى الطريقِ إلى بصرى ، و رَمَــاه بســـهمٍ فتّاك ، فَقَتَله..بينما أخَذَ بلدوين فى التَقَهْقر حتّى بلغ بقوّاتـــه نهـــر الأردن ، حيثُ دَارت آخر الإشتباكات قبل دخولهم أرض بيت المقدس و هُم يحملـــون خِزْيَهم على ظهورهم المنحنيةِ من وطأةِ الهزيمة .

جزاء الخيانة

أمْسَى ألتونتاش كالطائرِ الذّبيح ، يُفرفر حُزناً و ندماً ، فقد دفعته نفسه الدَنِسة إلى ســـوء المصير ، فقرر أن يَرْجع .. يَرْجع إلى نفسه التى شَـــرَدَتْ منــه ، يَرْجع إلى أرضه التى مادتْ من تحتِ قدميه ، يَرْجع بعد فواتِ آوان الرّجعة ؛ ربما يَجد ما يصبو إليه من العَفوّ الجميل ، يَحْدوه الأمل فى النجاةِ بنفســـه ، وإمارته، النجاة بحلوه و مُرّه .

غير أنَّ الوهْمَ قد صوَّر لخياله ما يُعْميه عن حقائقِ قدَره ، فعَادَ ..

و عندما رَآه معين الدين ماثلاً قُبَالتَه ، مُنْكسِراً ، رَآه ، هو هو ، بِلَحْمِه ودَمِهِ، شَعَرَ بالرَّاحة الأثيرة ، و قالَ مُغْتبطاً :

* هأنتذا ، قد عدتَ إلينا مرَّة أخرى ، هكذا أردتك !

فإرتَمَى ألتونتاش تَحْتَ قدميهِ مُتوسلاً :

* عفوك أيُّها الأمير !

فدفعه معين الدين بِقَدَمه بعيداً ، ثم قال بلهجةٍ آمرةٍ :

* لا تَرْكعْ !

ثم صَاحَ مُسْتدعياً حَرَسَه ، و هو يقول :

* لا تنتظر مني عفواً .
فأخذَ التونتاش يتوسل . لكنّ معين الدين لم يأبه بتوسلاته ، و قال للحـــــرسِ بصوت خفيضٍ لا رجعة فيه :
* أمَرْنَا بسملِ عينيهِ و سَجْنَه ما دامَ حيّاً . خذوه .
فسَاقَه الحَرَس رُغم عنه . بينما هو يحاول الإمتناع عليهم بكل ما أوتـــي مـــن قوة..
و هكذا ، إنطفأتْ شمسه إلى الأبد ..

عَوْدُ لذي بدء

حَديثٌ مُزدوج

ظَلَلْتُ أبحث عن نور الدين بحثاً مضنياً ؛ فقد انفصل عني فجأةً ، و عندمـــا وجدته ، كان جالساً القرفصاء داخل غرفة حقيرة بُنِيَتْ من الطِّين ، تعـــوَّد على سُكناها في أوقاته العصيبة ، حيث يَنْعَزِل عن كلّ شيءٍ و يتقـــرَّب فـــي عُزلته إلى خالقه و يناجيه ..
هكذا وجدته ، سابحاً في بكائه ؛ كأنه يَغْسِل نَفْسَه ، حتّى كـــادَ صَوْتُـــه أنْ يَنْحَاش في حلقه ، و لم تعدْ به رغبةٌ في الكلام ..
لم أستَوعبَ في بداية الأمرِ ، فَحَزِنْتُ لرؤيته على حاله هذا ، و سَـــعيتُ إلى حَثّه على الكلام . لكنه أبَىَ ، و تنحَّ عني بعيداً إلى ركنٍ منزوٍ من أركانِ تلك الغرفة الغريبة . لقد أدْهَشَني ذلك ؛ إذْ أنّ رجلاً مثله ، له من العزّة ما لـــه ، حَسْبَمَا عَلمْنَاه عنه ، ليس من المعقول أنْ يُعَذّب نَفْسَه هكذا ..
لكنه يُجَرِّب الألم ، و يلتذّ به ، لكي لا يفوته أنْ يَعْدُل بين الناسِ ..

فأدركتُ حقيقة ماهو عليه ، فتركته و مَضَيت ..

و عندما رَجعْت إليه بعد فترةٍ من الزمنِ ، لا أعلمها ، رأيتـــه شـــاخصاً في ، فإبتسمت له ، و لم أنطِقَ بكلمةٍ . فقال هو :

* هأنتذا قد رَجعْتَ إليّ ، أيها القرين الصديق !

فقلت :

* أجل ! بعد طوافٍ فى البلادِ ..

و بعد صمتٍ طويلٍ أضَفْتُ :

* رَأيتُ الكثير و عَرَفتُ الكثير ، لكن الشئ الذى لم أعرفه بعدْ ؛ هو أنت ! ما سِرُّ عُزْلَتَك ؟

قال متألماً على غيرِ عادته :

* فى يومٍ مثل يومنا هذا ، حَدَثَتْ كارثة ، لقد أصابتْ قلوبنا بالألم الموجعِ ..

ثم أمسَك رأسه و هو يقول :

* إنَّها ذِكْرَى لا يمكن تجاهلها .

فقلت :

* قُصَّ عليَّ ما يُتعِبَك ، ربما أجد لنفسى عِبرةً .

قال :

إنْ لم تَجد عِبرتَك فَستَجدَ ألَمكَ .

فأنْصَتُّ إليه بِكُلِّيتى .

الرواية الأولى

كان الليل ساجياً كالحريرِ . و الناس هناك.. فى مَعَّرةِ النعمانِ .. نيَام نيَام ..
لكنَّ القلب المُدَنَّس ، صاحب الضميرِ الأسود ، لم ينم ليلتئذٍ ، وظلَّ ســـاهراً
على نيَّتهِ ..و لمَّا بَلَغَ الليل غشاوته ، أطلَقَ جُنُودَه ، فـــإنطلقوا .. يحملـــون
أبراجهم السوداء ، و تسلَّقوا أسوار المدينة السابحة فى هَدْيِها ، و تسللوا خِلْسَةً
إلى القلوبِ البيضاءِ كالنسيمِ ، الواحد منهم تُلو الأخر ..
و شُقَّتِ صدور النورانيين بالغدرِ الأسود ..
و سالتِ دماؤهم البيضاء أحزاناً حمراء ..
و لا زالتِ جِراحَهم تَنْزِف الآمها حتَّى يومكم الذى تعيشونه أنتم ..

الرواية الثانية

أمْسَـــتِ أيام النورانيين متشابهات فى بيتِ المقدسِ ..
و الأزمنة غير مُدْركة ، فقد أُصيبَ القلب الأبيضِ فى الصَميمِ . و لم يَـــبْرَحَ
السكينُ الأسودِ الطَّاعن ذلك الجُرْح العميقِ ..و توارتِ قناديل الفضَّـــة عـــن
العيونِ المفعمةِ بالرَّحمة الإلهية ..
فأمْسَى الظَّلام طويلاً..

فى مدينة حمراء..
سَجِينَةُ أُهلها العاجزين ..

العُرس

بدا نور الدين فوق سَرَاة الفَرَس الأبيض الثلجيّ كالبدر في ليلته ، و سارا قَدّاً واحداً في مسار طويل سيراً متبختراً ، وسط الخيول المطهّمة بالزينات التي تُشبه قوس قزح . بينما العازفون يدُقون دفوفَهم دَقّاً آسراً منتظماً ..

و وقف معين الدين بأُبهته في نهاية المسار الطويل ، فارداً ذراعيه بالفرْحَة المرسلة من بين عينيه المتوهّجتين بالأمل الجميل ..

و لمّا أمسك الفَرَسُ عن سَيره الرّاقص . انْسَلَتَ نورالدين ، و خَطَا عِدّة خُطوات راسخة حتى أضْحَى من معين الدين دانياً دانياً ، فَضَمّه إلى صدره ضَمّةً .. بَدَتْ قُرْباناً للإنصهار الوليد ، ثم مَضيا بعيداً ؛ حيث برَكَتْ ناقة العَروس في ركن منزو وسط موكبها ، و رَكِبَ نور الدين إلى جوار عروسَه بالهَوْدَج ، ثم تحرّك بهم المَوْكَبُ في طريق عودته إلى حلب ، بينما الدّفوف تَدُقُّ و تَدُقُّ .. و الرّاقصون يتمايلون ميلاً رائقاً جميلاً ..

على هامش الصّورة

لم يهنأ نور الدين بتلك الرّاحة الأثيرة إلى النّفْس ، فما كادتْ تَجتَذِبه بمُغْرياتها حتّى تغلّب على مَيله إليها ، و مَضَى لما ألِفَتْه نَفْسه من العناء ، مُخَلّفاً وراءه حياةً جديدةً قوامها الصبر اللانهائي ..

في سبيل التحوّل

هكذا ، غَدَا نور الدين واثقاً من ضرورة تَثْبيت الخُطا علىأرض لا تَهْتَزّ مهما

زُلزِلَتْ تحتَ أقدامِ أصحابها ، و مهما انتُكسَتْ ؛ أو سَعَى الحاقدون إلى تَخْريبها ، لقد أرادَ أنْ يُقيم دَوْلَتَهُ الجَديدَةَ على أسسٍ لا يَسْهل هدمها ، لاسَيما أنَّ الصليبيين يَسْعون إلى تَفْتيت نواة النورانيين . فأرادَ أنْ يُثنيهم عن عَزْمهم ذلك ، فحَمَلَ الناسَ على الترَّفع عن دونيَّة الدنيا ، و دَفَعَهم إلى الإمتزاجِ بالنورِ و التَجَرُّدِ الرُوْحاني حتَّى تصير رُوْح الإيمان هي المشكاةِ التي تُضيئ نفوسهم بطاقة الإسْتمرارِ التي لا تَنْفَدَ ..

إجتماع طارئ

.. و بينما الشَّمسُ تَنْشر خيوطها المتلألئة فوق أرضِ حَلَب . بدأ الأمراء والقادة النورانيين في التوافد إلى معسكرِ الجند ، الواحد تُلو الأخر ؛ حيث قَضَى نور الدين ليلته ساهراً ..

و ما لبثوا أنْ استقرّوا في مجالسهم حتى حَدَّثَهم قائلاً :

* إننا على مشارف تَحَوّلٍ كبير ، فإما أنْ نَسْتَمسك بالمنهجِ السليم ، أو تَغيب عنَّاحقائقُ أنْفُسنا ؛ فَنَضلَّ ، و نَفقدَ الهَدَف الذى نُكَرّس جُهودَنا من أجله ، و ننحَدربذلك إلى الدَّرك الأسفلِ بلا عَوْدَة .

ثم أضَافَ بعد فترة صَمْت قصيرة :

* إنَّ الفرنجَ قادمون بحملة لا سبيل إلى ردِّها إلاَّ بقلبٍ نوراني واحد ، و نحن لا زلْنا دونَهم في القوةِ و التَعْدَاد . فإنْ رأيتم فيَ مُعيناً لكم على ذلك ، فأنا لست شيئاً بدونكم،و إنْ كان بينكم مَنْ هو أحْفَظ مني على أمرِ الناسِ ، فما أنا بِخَيركم حتىأَستَمسْك بما أنا عليه، وإنْ رأيتم فِيَ إعوجاجاً فواجبكم أنْ

تَردّوه إلى سواءِ السبيل.

فقال أسد الدين :

* أنت القائد ! لا رَجْعَة لنا في ذلك ! لكننا نحذّرك من مَغَبّةِ ركوبك الخطر عند كل حرب .

فرَد نور الدين بيقينه الذى لا يتزَعْزَع :

* و مَنْ أنا حتى يُقال له ذلك ؟! فَمَنْ قَبْلى قد حَفظَ البلاد؟

فإرْتَبك أسد الدين و انْعَقَدَ لِسانه عن الرَّدِ ..

فأضاف نور الدين :

* إنه هو ، الله .

فقال صلاح الدين الياغسيانى ،كبير مستشارى نور الدين ، مؤمِّنــاً بصوتــه المتميّز:

* صَدَقت في هذا !

فَنَظر إليه نور الدين و لم يُعقّب عليه ..

و سادَ الصمت الطويل ..

ثم قال نور الدين بعد ذلك :

* أرى أننا لنْ نَقْدَر على مواجهةِ الفرنج جيشاً لجيش !

و أخَذَ يتأمل الحضور ؛ فقرأ الدَّهشة على وجوههم ، فأضاف :

* إذا فَعلنا ذلك قد نَخْسر . فما هو رأيكم ؟

فقال سُوار :

* إنَّ الحرب خُدْعة ماكرة ! هذا ما تَعَلّمناه من أبيك .

قال نور الدين :

* أجل!

ثم أطرق للحظات أضاف بعدها :

* لكنّ الفرنج قُوّة لا يُستهان بأمرهم ، و قد جمعوا رجالاً من شتّى البلدان الفرنجية ، و جمعوا مالاً يُعينهم علينا. و الرأى عندى أنْ نبدأ فى إعداد أنْفُسنا منذ الأن ، وأنْ نُحْكِم منافِذَنا جيداً ، لذا لابدَّ من أنْ نَتَّصِل بعملائنا فى دمشق وغيرها من المدن .

فقال سُوار :

* إنَّ ما لدينا من قوات فى حلب و دمشق غير كافية .

فردَّ أسد الدين بصوته الهادئ :

* لا سَبيل أمامنا إلاَّ أنْ نَستَعين بقوات من الموصل .

فقال نور الدين مؤيّداً :

* أجل ، ذلك هو الصواب .

و عندئذ ، قال الشّيخ الأمير مُخلص الدين أبو البركات ، الأمين على خزائن الدولة :

* إنَّ ما بحوزتنا من أموال غير كاف .

فقال نور الدين :

* لابدَّ من أنْ نتدبَّر أمرنا فى حدود ما لدينا .

ثم أطرق فجأةً ، و شَرَدَ للحظات ..

فسأله اسد الدين :

* فيمَ تُفَكِر ؟

فقال نور الدين :

* لقدْ فاتنا أنْ نَحْذَر خطَراً بالغاً .

فَرَمَقَه الحُضور بدهشةٍ و نظراتٍ تملؤها الرّغبة فى استدراكِ مَغْزَى الكلام ..

فقال :

* لا بدَّ من أنْ نؤمِّنَ أنفُسنا من جهةِ أنطاكية .

فرماه أسد الدين بنظرةِ زهوَ ، ثم أضاف إلى كلامه :

* فأميرها رجل شَرِس لا يترك فرصةً لإيذائنا حتى رَكِبَها .

ثم قال بنبرةِ صوتٍ جَدِيدة :

* أصبْتَ فى ذلك !

و قال نجم الدين أيوب ، حاكم بعَلْبَك و شقيق أسد الدين ، بعد انصاتٍ :

* إنَّ ريموند شيطان أهْوج لا يتورَّع عن عملِ أية شئ .

و إذَّاك ، قال نور الدين :

* إنَّ ضَرْب رأس الأفْعَى فى أنطاكية لابدَّ أنْ يتزامن مع ضَرْبِ مؤخرة الجيشِ الفرنجى إذا أتوا عن طريقِ دمشق ، فَينشَغِل كلٌ بنَفسه .

فقال سيف الدين سُوار ، قائد الجيش :

* بذلك نُشتِّت تماسكهم ، و تنقضى حَمْلَتهم أقبح انقضاء .

فقال نور الدين :

* أجل !

ثم مدَّ يدَه اليُمْنى و هو يقول :

* ليكن مبدؤنا هو أشدَّاء على الكُفَّار رحماء بينهم .

فمدُّوا أيمنهم بعضها ضاربةً على بعضٍ ..

في أنطاكية

لم يكدْ كنراد هوهنشتاوفن يَطأ أرض أنطاكية ، حتّى أحسَّ بالراحة الأثـــيرة بعد عناءِ السّفر الطويل عَبْرَ الطُرق الوَعْرة ، و أمَرَ جُنْــده حيــث مَكثــوا ، فإستراحوا..

ثم أرْسَل سفيراً منه إلى ريموند ، كونت أنطاكية ، لإخباره بوصولِ ملك ألمانيا .. لكنَّ ريموند لم يُبدِ اكتراثاً به .فأبْدَى كنراد استْياءَه ، و أعــاد ســفيره إلى ريموند برسالة شديدة اللهجة .و عندما استَشعَر ريموند نيَّة الغدرِ في رســـالة كنراد ، نَزَل إليه في التوِّ وسط حَرَسٍ من أشدِ حُرَّاسه مهارةً .و ما كادَ كنراد يَرَاه والجاً إلى خَيمَته حتّى أنّه حَدَجَه بنَظْرَةٍ قاسيةً كقسوةِ النـــارِ ، و حَدَّثــه بلهجة متحَجرَة :

* ألم يُعَلّمونكَ أنَّ مَلكَ ألمانيا إذا نَزَل بمكانٍ لم يَعْصه أحدُ ؟

فدَنَا منه ريموند قليلاً ، و أبدى انحناءةَ مُدَاهنة ، ثم إعتَدَل ، و قال مراوغاً :

* أيها الملك الكريم ! عفواً .. فأنا لدَيَّ ما شَغَلَني عن طاعَتكم .

فإمتلأ كنراد زهواً بنَفسه ، و قال :

* أيَّ شيءٍ يشْغَلك عن ملكِ ألمانيا ؟

قال ريموند :

* الّذي يَشْغَلني هو ما أتى بملكِ ألمانيا إلى بلادِ المَشرِق .

فلمّا سَمِعَ كنراد ذلك ، ظَنّ أنّ ريموند يَسْعى إلى ما يَسْعون إليه ، وأنّه يَنْوى محالفته من دون سائرِ ملوك الفرنج ، فصَدّقه ، و أقبلَ عليه ، و رَبَتَ على كتفيه ، و قال له مستَفسراً بصوتٍ لا تشوبه شائبة الشّك :

* فسوف تَصحَبنى إذاً إلى بيتِ المقدس ؟

غير أنّ ريموند كان يَسْعى إلى الدنوّ من مآربه هو ، فأراد جَذْب كنراد بقواته إلى دَرْبه ، فيُزيده قوةً على قوته ، فقال :

* بل ، ألتَمسُ أنْ يصْحَبنى الملك كنراد إلى حلب !

فإشْتَعل صَدر كنراد غيظاً ، و أحسّ أنّ ريموند يكدّر عليه فكَرَه ، و يُخادعه ، من أجلِ غاية خَبيثة فى نَفْسه ، و ذلك بدوره يُتلف عليه مَسْعَاه . فقال :

* لم آتِ من أجلِ مناصَرَتك أنت ! إنّمَا جئت من أجلِ الرعيّة بأسْرِها ، والكنيسة فى روما ، أتيت من أجلِ المجد العظيم !

فهَمّ ريموند بالحَديثِ لولا أنْ استَوقَفه كنراد بإشارةٍ من يَده ، و قال :

* أمضِ ..

فرَمَقَه ريموند بنظرةٍ لائمة لكنها لا تخلو من الخشيةِ ثم مضَى ..

وصول الحملة الكبرى

كما يخرّ الودْقُ الكَثيف على أرضٍ ظمآنة ، و كما تتساقَط حبّات البَرْد فى ليلة شتوية بعد قَيظِ صيف مُحْرِق ؛ بدَا وصول تلك الحملة المُنتَظرة كأنّه السّحر إذْ يسْرى فى كيانِ ميليسند ، صاحبة القلب النيرانى ، التى ألهَبَتْها نيرانَ حربٍ لم تَستَعِر عن أخرها ، و رُغم ذلك لم تَسْلَم من لَهيبها ..

لذا ، رأتْ أنْ تُوظّف كل ما لديها من طاقات مُختزنة لملاقاة ملوك الغـــرب ودوقّاتهم و قسَاوستهم و فُرسَانهم ، القادمون يُجَرجرون أحْقادهم الحمراء ، لَقَدْ رأتْ فيهم أخر ما يُمْكنها الإهْتداء إليه من نور .و فيما أخَذَتْ تُغْرقهـــم بفروضِ الطّاعة الزّائفة ، و واجبات الولاء الكاذب ؛ خَصَّتْ الملوك و الرُّهْبان والدُوقّات بدعوةٍ نبيلة فى مظْهَرها لحضورِ مجلس عكّا الكبير ..

مجلس عكّا الكبير

.. و قَدْ التفَّ الحضور فى مجالسهم بمائدة مُسْتَديرة تحْوى كُلّ مـــا تشـــتهيه النَّفس . بينما الرّاقصات الجميلات تَطُفْنَّ حَوْلَهم كفراشـــات تَسْـــعينَ إثْـــرَ زهورهنّ العَطِرَة . و أخذَ بلدوين يُثْنى عليهم بتَبرِ الترحابِ الفيّاض ، وشاركه فى ذلك : فولشَر ؛ بطريرك بيت المقدس ، فضلاً عن رئيسى أساقفة قيسارية و الناصرة ، و مُقَدّمى طائفتى الفرسان و الرُّهبان : الداوية و الإســـبتارية ، وبارونات بيت المقدس ..

لقَدْ دهشَوا بما يحْدُث من حولَهم ، حتى كادتْ أنْ تُسْلَب عقولهم ، لا سيَما لويس السابع ، ملك فرنسا . و شقيقه الكونت روبرت . غير أنَّ صهْره المُقْبل هنرى قدْ أبْدَى سروراً لا يخلو من العبثِ ، كعادته ، و شاركه الكونت ثيرى سلوكه . بينما خَطَّ الغَضَب وجه برتراند الصَغير ، الإبـــن غـــير الشـــرعى لألفونسو جوردان . و لم يُبد كنراد تأثراً بما يحْدُث من حوله . و إلتزم كـــلُ من : هنرى باسمبير ؛ الأخ غير الشقيق لملك ألمانيا، و أبن أخيه أوتو فرايزنجن ، و فريدريك ؛ دوق سوابيا ، و ولف ؛ دوق بفاريا ؛ بسكونٍ يُشْبه ســـكون جبال الجليد الباردة رُغم تصارع الرّياح من حولها .

ثم قالتْ ميليسند مخاطبة كُلَّ الحُضُور :

* الأن ، أستطيع القول بقلبٍ شجاعٍ ؛ أنّه لم يَعدْ يُعَرقلنا شئٌ عن التقـــــدُّمِ لغَزو بلادِ الشام .

فأرْسَلَ لويس السابع ضحكاته الرَّنانة ، ثم قال و هو يجْرَع كأسه :

* أجل ! أجل! أيتها الملكة الكريمة ! لقَدْ أعجبني قولكِ كثيراً ، فـــإنَّ ذلـــك أيسَر علينا من ذَبْح شاةٍ ضئيلة .

ثم استَرسَل في الضحكِ بدونِ توقفٍ . و شاركه الحُضور بهجتَه ..

عندئذ ، سُمِعَ صوتُ غَليظ تُبْعَثُ منه هَيبةً- عَكْسَ صورة المُحَدِّث - إذْ يبدو نحيفاً ضئيلاً ، ذو لِحيةٍ متناثرةٍ ، و أخَذَ يقول :

* لعَلَّ الرَّب أنْ يُبارِك لنا حملتنا المباركة !

فقال لويس و قد بَدَا مخموراً :

* أجَل ، أيُّها الأب ! سيباركها لا شك في ذلك.

فلمَّا سَمِعَ بلدوين هذا ، صارَ كالجمرةِ الملتهبة ، و تغيَّر وجهه ..

فقال بألمٍ مفرطٍ :

* إنَّ الّذى تدَّعونه غير صَحيح ! فلو عَرِفَ أحدكم مَدَى الذُّل الذى لاقَيناه لما قال ذلك ، إنَّهم أقوياء ، و إنْ لم نَحْذَرهم ، لن يكون في انتظارنا غير العارِ .

ثم مَضَى ..

وكما يسْري السُّم في الجســـــد البائسِ ، سَرَت كلمات بلدوين في كيـــانِ لويس؛ الّذي صَاحَ بصوتٍ مرتَعش النبراتِ من وطأةِ الخمرِ ، بينما عَيْنَاه

حمراوان تَشعّان بلهيبِ الغضبِ الأحْمَر ، قائلاً و هو يترنّح :
* أنا لويس السابع ملك فرنسا ، لا يجرؤ احدٌ على هزيمتى !
و ترك المجلس و مَضَى ساخطاً متذَمراً ..
و تَبعَه سائر دوقّات فرنسا فى سكونٍ ..
بينما نَهضَ كنراد بثباتٍ ، وقال بهدوءٍ :
* يبدو أنَّ ملك فرنسا قد غَضِبَ ! أرى أنْ نُرْجِئ الإجْتماع لوقتٍ لاحــق ؛ حتى يَتسنَّى لنا وضع خُطة البدء .
ثم قَبَّل يدَّ ميليسند ، و قال :
* أُسْعدتِ مساءً أيتها الملكة !
و مَضَى ..
و خَرَج الحُضورُ فى أَثَره ..

البَدْء فى التَحرّك

عندما ذَابتْ الظُلْمة فى نورِ الصباحِ النَدي ، بَدَتْ الجَليل سَجّادة غير واضحةِ المعالمِ ؛ إذْ غمرَتها أقدام الفرسان ، و حوافرِ الخيولِ المارقة بســرعة قصــوى صَوْبَ بانياس ، بينما تناثرت فى الهواء أصواتُ غير متجانسة اللغاتِ ، لكنّها تَحْمِل نَفْس الرّاياتِ و نَفْس الرموزِ ، بل نَفْس الغايات ..
و خلال بضعُ ليالٍ بنهَارها من السيرِ المُضْنى ، تَمكّنَ ذلك الجَيشِ الرَّهيب من بلوغِ تُخوم البساتين المُحيطة بمدينة الأحلام .. دمشــق .. حيــث لاَحَــت لعيونهم أسْوارها البرَّاقةِ ، و أبراجها البيضاءِ ؛ كدُرَّةٍ تَخلِب القلوبِ و العقولِ

المتطلّعة إليها ..و عَسْكروا هناك .. و ظلّ ذلك الحلم الجذّاب يَعْبَث بخيالاتهم أياماً مَعْدودَاتْ ..

لكنّهم لم يمكثوا هناك كثيراً ؛ إذْ نَفَدَتْ بطنُ الأرضِ ، و كأنّها تَلْفَظهم ، وضَنَّتْ عليهم بمائها الأثيرية . فشدّ عليهم الظمأ أذْرِعتَه الفتّاكة ..

و لم يَصْبروا على عنَائهم .. فإرتحلوا ..

وقَصَدوا قَرْية الهُمزة القريبة من مُعَسْكرهم ؛ حيث لا يَصْعُب عليهم البقاء ..

وما كادَ ليلُ ذلك اليوم يفرض ظُلْمته على المكان ، حتّى تمكّنوا من السيطرةِ على البساتين المحيطة بأسوارِ المدينة ..

لكنّ كنراد ذو الرأسِ المُتصلّبة لم يَرْخِ عينيه حتّى تسلّق تلك الربـوةِ المطلّـة بعيونها على نهرِ بَرْدى .. تحت أسوارِ دمشق ..

في اليوم التالي

بدأت الإمدادات تتدفّق على المدينة عَبْرَ أبوابها الشمالية ، و في ذات الحين ، توغّل المجاهدون من رجالِ دمشق إلى قلبِ البساتينِ و الحدائق خفْيَةً ..و أقْبَلوا على مؤخرةِ جيشِ الفرنج يلْدَغونه هنا و يصفْعونه هناك ، حتى نَشروا بينهم حُمّى خَبيثة كحُمَةِ الأفاعي ، لا شفاء منها ، و نَثَروا بين صفوفهم رائحةً نَتنة و شائعات مُخْذية حول خيانةِ قادتهم ..

فبادر كنراد و لويس و بلدوين بعقدِ اجتماعٍ طارئ لتدارك الأمرِ ..

و في أثناء الإجتماع ، أخَذَ كنراد يقول :

* نحن في مأزقٍ حَقيقي لابدّ من أنْ نَجد لأنْفُسنا مخْرَجاً منه .

فقال لويس بغرور :

* أيةَ مأزقٍ تَعْنى يا ملك ألمانيا ؟! إنَّهم .. إنَّهم رِعاع و لا سبيل لهم غـــير الفرارِ أمام جَيشنا العظيم .

فقال كنراد بنفادِ صبر :

* إنَّكَ لا تفهم الذى يحدُث من حَولك أيّها الملك !

فقال لويس :

* لالا ، أنا أفهم كلَ شئٍ ، كلَ شئٍ ، دَعْ القيادة لى ، و أنا قادر علـــى أنْ أبيدَهم تماماً .

فقال كنراد ، وقَدْ بَدَت على وجههِ علامات الغَضب :

* إنَّهم يَعْلَمون خَبايا تلك الغابات ، فإن لم نبادر بالرَّحيل عنهـــا .. ليـــس بالإمكانِ الإسْتمرار هكذا .. سَيقْضون علينا ..

عندئذٍ ، قال بلدوين :

* لا يجب أنْ نرحلَ عن هذه القرية ، فإنْ رَحلنا عانينا فَقْرَ المياه ؛ وهذا أمـــرُ من شأنه أنْ يُدمِّر قواتنا حتّى أخر رجلٍ فيها .

فَغَضِبَ كنراد ، و انْتَفخَ وجهه .. ثم صاحَ بإصرارٍ :

* بل سَنرحل ..

فَنظَرا إليه بدهشةٍ ألْجَمَتْ لِسَانيهما ، لكنَّهما لم يسْتطيعا مناقشتهِ ، و اضطَّرا للإذعانِ ..

ثم رحلوا ..

و لم تَمضِ سوى أيامُ قلائل حتّى تبيَّن لهم خطأ ذلك القرار ، حيث نزلـــوا بمكان مجْدب من المياه ، و بدأوا يواجهون الموتَ البطئ تحت حـــدّ أنيـــابِ الظمأ الفتّاكة .

و في أثناء ذلك

في حلب

أخذَت الخيول المتراصّة في صفوف منتظمة في التحرّك تحركاً مُنسّقاً رشيقاً ، مُحْدثة سَحابةً من الأغبرة المتصاعدة ، و جَلَبة من الصّهيل المتنـــاغم . بينمـــا الفرسان فوق صهواتها وحَولَها كقطعٍ من الألماس المتلألئة . و قَدْ و قفَ سيف الدين سُوار في مُقدّمتهم ، و هو يصيحَ بينهم مُحفّزاً :

* أيّها الفُرْسَان ! إنَّ دوركم في القضاء على ريموند ليس أقلّ شأناً مـــن دورِ إخوانكم في دمشق . إنما نحن نَسْعَى لضربِ رأس الأفْعَى ، و هُمْ يسْعون للنيلِ من الجسد .. فتقدّموا .. تقدّموا ..

و بينما الفرسان يحثّون خيولهم على التهام الزمنِ الممتد حتّى أنطاكية . كانت الرّياح الموالية تَحْمِل نورالدين و أصحابه على مَتْنها إلى دمشقِ الخضراء .

فيما يلي ذلك

دّرس لا يُنسَى

.. و كما تَهُبّ النوّة على أعتَى البحارة ، فتدور بهم دورانها المميت ؛ هَـــبّ النورانيون على أعدائهم هبوباً .. دائرياً دائرياً .. فَتطايرت الرّماح في أفـــقِ المعركةِ باحثةً عن مستقرها . و بَرَزت السيوف متطلّعة عبْرَ فرَاغها إلى أجسادِ

تَسْتحقّ نصَالَها . و الخيول تَسْرى فوق الأرضِ سَريان الدماء فى عروقهـــا .
والصرخَات تتصاعد فى الهواءِ حيناً بَعْدَ حينٍ ، فَتَحوّلَتْ الأرضُ إلى بحــيرةٍ
حمراء..
و إذّاك ، أدرك ملوك الفرنج ، و دوقّاتهم ، و قساوستهم ، و فرسانهم ؛ أنّهم
قد اقترفوا حماقةً ، و لم يَعُدْ حيالهم سوى العودة إلى بلادهم برئوسٍ مُنكّسةٍ ،
زاحفون على الأرضِ زَحْف الحيّاتِ فى وحلٍ من هوانٍ أسودٍ لا نقاء منه .

الصورة التاسعة

إنكسار جناح دمشق

عندَما عَلم بذَلك ؛ كادَ نورالدين أنْ يفقدَ توازنه ، لكنّه حَاول التّماسك رُغمَ
صعوبة الأمرِ عليه ، و آثرَ العودة إلى بيته ..
ثم إنّه لّما دَخَل بيتَه ، حاول إبْدَاء ظاهراً غير الذى يُخْفيه باطنــهُ ؛ لكنّــه لم
يُحْسنَ ذلك ، فما كاد أنْ بَصَرَ زَوْجَته حتّى طَفَرتْ منه عبَرَاته . فأحسّــتْ
هى بأنّاته ، واسْتَشعَرتْ ما يفيض به صَدره من همومٍ ، فســألته بحكْمَتهـا
الثاقبة ؛ محاولةً التَسْرية عنه :
* ما بكَ يا حَبيبَ القَلب ؟
لكنّه رَمَقها بنظرةٍ حَزينة حَزينة .. و عَجَزَ عن الكلامِ ..
فأخَذتها الرّيبةُ ، و قالتْ بصوتٍ باهت :
* أخْبرنى بما أنتَ فيه ؛ فإنّ قلبى لا يحْتمل صَمتكَ !

فقال مُشْفقاً عليها :

* لقَدْ رَحَل عن دنيانا ..

ثم أمسَكه البكاءُ عن الكلامِ ..

فَحدَجتْه بنظرةٍ مُستفسرةٍ ، و قالتْ ، و قَدْ بَهَر صوتَها :

* مَنْ تَقصِد ؟! أهو..

فقاطعها قائلاً :

* إنَّه قلب دمشق .

فقالتْ مشدوهة :

* أبي !

فهَزَّ رأسه بالإيجاب ..

فأمسَكتْ برأسِها إثْرَ دوارٍ أصابها فجأةً ، و مادَتْ بها الأرض ، فأوشكتْ أنْ تَسقُط ، لولا أنْ استَدْعَتْ إيمانها من يمِّ القلبِ الرَّهيفْ ، و تماسَكَتْ ، وقالتْ بصوتٍ هادئٍ لا يخلو من ألألمِ :

* إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون !

و طَفَرَت من عَينيها الدموعُ مدْراراً ..

فمَدَّ نور الدين يُمْناه إليها ، و أخَذَ يُخَفِّفِ عنها آلامَها ..

فيما يلي ذلك

في دمشق

... و أطلقَ مجير الدين ، الحـــــاكم الفِعْلي هناك ؛ أشباحَ خَياله تعْبث به ،

وتُحرِّكه كيفما يتراءى لها ، و حَلَّ نَفْسَه من كلِ قيدٍ ، وكأنَّه أراحَ صَدْرَه من من هَمٍ ثقيلٍ ؛ هَمٌّ ظَلَّ جاثماً لسنواتٍ طوالٍ ، و هو يعانى من ثقله ، لكنَّه لم يَقْدَر على لفظه ؛ لإنَّه هَمٌّ أحبَّه النَّاس، و رأوا فيه مَلاذَهم . لكلِ ذلـــك ، لم يَقْدَر على مواجهته فى حياته ؛خشْيَةَ النَّاس، أهل دمشق ، الَّذين أخلصَ إليهم معين الدين ، فأخلَصوا هُمْ إليه ..

و كأنَّ زوال معين الدين من دنيا البشرِ قد أفْسَح الدَّرب لمجير الدين كمــــا لم يكن من قبلٍ ، فأطلَق العنانَ لنَفْسه تَهيم فى سماء دمشق بــــلا رادعٍ يَضْبِـــط إنحرافِها . و صارَ النَّاس هناك أشْباهاً تَدْهَسَهُم أيّامهم فلا يجدون منها فراراً .

فى الطريق إلى دمشق

و لم يَحْتمِل نورالدين ذلك ؛ فالنَّاس عِنْدَه إمَّا جَنَّةُ أو أنَّهم نَار ، و الحُكم فى عُنُقه أغْلال لا يحلُّه منها إلاَّ العَدْل ؛ لذلك لم يَحتمِل سلوك مجيرالدين بـــين النَّاسِ ، و شتاته عن الدَّربِ ..

فأعدَّ قوةً من فرسانه ، و مضَى معهم إلى دمشقٍ ..

لكنَّهم لم يبْلغوا ما خرَجوا إليه ؛ إذْ هَطَلَت الأمطارُ غَزيرة غَزيرة ، و أغْرَقت الرمال حَوْلَهم ، فأعاقَتْ سَيرهم . فتَعثَّروا . و تعـــثَّرت خيولهـــم . فـــأثروا الرَّجوع..

بدون عَوْد لذى بدء

شَعَرت بنُعاسٍ يُداعِب رأسى ، فإسْتَمالَنى ، فافْتَرشت عُشْباً كثيفاً كان كثيباً

مني ، واسْتلقَيت على ظَهْري ، وأغْمضت عَينيّ ..

لكنَّ الذّكرى لم تُمْهلني ، و أخَذَتْ تؤرِّق النُعاسَ بين عينيّ و في رأسي ..

يومئذ .. كنت أسير في الشـــارعِ مُغرِّداً ، لم يكن لغنائي سببُ معلومُ ، فقط شـــعرت برغبة في ذلك أثناء سَيري ، ففعلْت ، و لم أدْرِ ما كنت أقـــول ، فقَـــدْ شغَلت ذِهْني أمورُغير أمر غنائي هذا .. وكان الشارع مُظْلماً ، بـــل مُعْتماً ، حتىّ أنّي لم أرْ تحتَ قَدميّ .. فتَعثّرت فجأةً ، تَعثّرت فـــي شـــئٍ لم أُفسِّره جيـــداً ، و توقفت عن الغناء ، ثم حاولت النُهوض مرةً أخـــــرى ، و ما كدْت أنْتصب في وقفتي حتى شَعَرت بركلة عند مؤخرتي تَلتْها صَفْعَـــة على ... فوقعـــت أرضـــاً .. وبينما كنت طريحاً ، سَمِعت صوتـــاً يُشْـــبه صوت الحمــــــار :

* ماذا كنت تُغنّي أيها ال.. ؟

فنَهَضت في ذهولٍ مما يحدث لي ، إذْ كنت أسير في الشارع و حيـــداً ، و لم أفعل شيئاً يَمسُّ الأخرين بسوءِ ، فما الّذي يحدث ؟ ..

لكنَّ صاحب الصوت الّذي لم أعْرفه حتّى الأن ، صاحَ آمراً :

* خُذوه ..

فتكالبَ عليّ بضعٌ من رجالٍ كالثيران ..

و لم أعْرف حقيقة ما حَدَث و قتئذٍ ، حتى الآن ..

لَقَدْ أضْحَكتني تلك الذّكرى بِقَدْرِ ما فيها من آلامٍ ، أضحكتني و لا زلْـــت أضْحَك كلّما تذَكّرتها ، أضْحك كيلا أبكي ..

مَعْركةُ يغْرى

لم تَفْتر رَغْبةُ نور الدين فى الذّهاب إلى دمشق , و إنّما ظَلّتْ مُتأججـة فـى قلبه، يَقظة فى عَقْله . و لم يَمْنَعه عن السَّير إليها مرّةً أخْرى ؛ غير أنَّ ريمونـد قدْ حَشَدَ قواتاً لا سبيل إلى ردّها إلاّ بيَد من حَديد ، و قلب لا يَعْرف الرَّحمة . فقَدْ تَبع ذلك الأنطاكى حقْده الأعمى ، و سارَ فى ثُبات أوهامه ، و هـواهُ الّذى يَنْخر عظامه مثْلَما تأكُل الدّيدانُ الجيفة ، لقَدَ خَرَجَ بكُلّ ما لديه مـن طاقات صَوبَ حَلب ، و لم يَرُدّه عن ذلك سوى الضَّرْب فوق رأسه بمطْرَقة حتّى الخَلاص منه..

و رُغْم أنَّ ذَلك قد بَعَثَ الشُعور بالقلق فى نَفْسِ نور الدين ، إلاّ أنّه لم يُبْـد لأعْوانَه حَقيقة الّذى يشْعُر به ، ثم أنّه لم يسْتَسلم لنَفْسه تَجُـرّه إلى حيـث تَكْمُن مخَاوفه ، و إنّما آثر أنْ يقْتحم على أعْدائه مُعسْكرهم الّـذى اتخـذوه لأنفسهم مقَرّاً ، فأسْكن ما به من قلاقلِ ، و أمَرَ قادتَه ، فأستعدّوا، و خَرَجوا إلى يغْرى لملاقاة الأنطاكيين ..

و هناك .. دارتْ معْرَكة طاحنة ..

و انتَزَع النورانيون نَصْراً ثميناً ..

و عادوا إلى حلب يُجَرْجرون أسْراهُم ..

فبَدَا نور الدين كالشمسِ إذْ تشْرق فى صباحِ يومٍ جديد ..

و اسْتقبله النّاس بالتَهْليلِ و الدّق على الدفوفِ ..

إسْترحام

و إذَّاك ، أدْرَك جوسلين المُشَاكس مدى القوة التى أضْحَى عليها النورانيون ، و أنَّه ما من جَدْوى من النيران المتأجحة فى سَريرتَه ؛ و أنَّه ما من جَدْوى من التألب ضدّهم ، و أدْرَك أنَّ المُدَاهنة خَيرَ السُبل لبلوغ غايته ؛ فإمتطى جَواده ، و سَارَ إلى نور الدين فى حلب ..

و هناك ، بعد حصوله على الأمان ، دخَلَ فى إنكسار ، و مَثُلَ لدَيه .. فبَـــدا كالطائر الجريحْ ؛ الّذى عَجَزَ فجأةً عن الطيران . و لم ينْخَدع فيه نور الدين ، و إنّما عَرف ما يُضْمره ريموند له من نيَّة خَبيثة .وبنَظرةمنه فى عينـــىّ ذلـــك الأنطاكى استْشعرَ ما تكتمه نَفْسَه من خَبَايا .

و بَصَرَه نور الدين دونما أنْ يُحَدِّثه ..

فسَعَى ريموند إلى كسرحاجز الصمت بينهما ، فقال مُسْتَرْحماً :

* لقَدْ جئتك طامعاً فى رحمتكَ !

فقال نور الدين بهدوء :

* أمّا عن الرَّحمة فلا تطلبها إلاّ ممنْ هو جدير بها . و أمّا عن العَفو فإنّا قـــوم نرى النوربقلوبنا ؛ فَلَك ما طَلَبتَ على نَفْسك . لكنّا لا نُعْفيك من القتال ما دُمتَ على غير ما نحن عليه ؛ فإنْ تُبْتَ قبلناك بيننا ، و أنزلناك منزلاً حسناً، و إلاّ فإمض لسبيلك واعلم أنَّ الحــــرب ستظلّ بيننا إلى أنْ يشـــــاء الله بالنصر لنا ، ثم لا تسألنى رأفةً بك ، فسيكون جزاؤك شديداً .

ثم أنَّه أطلقَه .. فمضَى ..

لم تخْمد ثورة ريموند بعد ذلك ، و إنّما أخذَتْ تزْداد أجيجاً كلّمـــــا لاقَـــتْ أُكلها؛ لا سيّما أنّه قدْ أمسَى بلا طَوْل بعد أنْ رَهَقَته عدة معـــارِكِ بائســـةٍ ؛ كادتْ جميعها أنْ تَجرَّه إلى هلاكه و هلاكِ أحْلامه معه .

و هكذا ، ظَلّ يبحث عن مُعينٍ يُشاركه إحْسَاسه ببغضِ النورانيين ..

و بينما هو لا يزَال على ظَلامِ قَلْبَه الأسْود ، لاحَتْ له خاطرة بارقة لاقَـــتْ هوى نَفْسه فإسْتَقرّتْ عنده ، و أخَذَتْ تسْتَميله إليها ، فسَعى فـــى اعْقَابهـــا سَعى الأعْمَى لهاويته ..و انْتَوى الرَّحيل إلى بلادِ فارس ..

و على الرُّغم مما تكبّده من عناءِ لبلوغِ آلموت ، إلاّ أنّه قَدْ صَبَر صَبْراً عنيداً ، وتحمّل مشقّة سَفَره الطويل ، لمجردِ الأمل ، الأمل الّذى كرَّس حياته مـــــن أجلهِ ، فما عادَ شيءُ فى الحياة يعْنيه غير الإنتقام . و بعد مسافاتٍ من الأيّـــام والليالى الّتى بَتَرته و بتَرها .. وصَلَ إلى بُغْيته ..

وتمكّن بعسْرٍ من الإلتقاءِ بملكِ الجبالِ و زَعيم الباطنية الحشّاشين * ؛ علىّ بن الوفا ، الّذى يُضْمر بين ضلوعه الآثمة حقْداً قَديماً للنورانيين ، و يخْتزن ناراً

---

* طائفة إسماعيلية فاطمية نزارية مشرقية ، انشقت عن الفاطميين لتدعو إلى إمامة نزار بـــن المستنصر بالله و من جاء من نسله ، أسسها الحسن بن الصباح الذى اتخذ من قلعة آلمـــوت مركزاً لنشر دعوته (من كتاب الموسوعة الميسرةفى الأديان و المذاهب المعاصرة ص ٢٠٣) .

* لابدّ من خلوّ الطريق لنا .

و أشار بظهرِ يده إلى ريموند ، فأسْكته ، ثم طَفقَ يَتعاطى بعضاً مـــن قطـــعِ الحشيشِ الصّغيرة ، و شَرَعَ بعد ذلك فى الصّلاةِ ..

فَدهشَ ريموند لما يحْدُث ، و سأل أحد التابعين :

* ما الّذى يفْعَله ؟

فقال التابع :

* إنَّه يسْعى بذلك إلى بلوغِ حالة الصفاء النَفسى .

فقال بدَهْشته :

* الصفاء ؟! بتعَاطيه الحَشيش ؟!

فقال التابع :

* أجل ! تلك هى تَعاليم مَذْهبنا . إنَّ الحَشيش يُطلق روْحه خـــارج نطـــاق الجسَد.

فأطْرَق ريموند دون قناعة منه بذلك ، لكنّه لم يُبْرز لهم ما يَدور بباطنه من أفكار .. و ظلَّ صامتاً حتّى أنْهَى علىّ صَلاته . و إلتَفتَ إليــــه بثقـــلٍ فـــى الحَركة. عيناه حمراوان . ثم قال بلسَانٍ لا يكاد يفقه قوله :

* لنتَعَاهد على ذلك .

و مدَّ يَدَه . فمَدّ ريموند يَدَه بريبةٍ و سكونٍ ..

مُبَاغَتة

.. و فى أثناءِ الليلِ ، زَحَفَ النورانيون عَبْرَ السّهلِ الممتّد بين حصـــنِ أنـــب ومُسْتنقع الغاب ، و كانوا فى سَيرهم قَدّاً واحـــداً ، تكاد بواطن أقدامهم أنْ

يكاد أتونها أنْ يَحرق كُلّ مَنْ يَسْعى لِغَرسِ الخيرِ و النورِ بين النّاسِ ..
فبَدَا كلاهما للأخر نجماً هادياً وسط ظلامِ الكونِ الكثيف ..
و ما لَبِثَ عليّ أنْ بَصَرَ ريموند أثناء دخولِهِ عليه ، حتّى صَاحَ بِصَوته السّـــمج وضَحكاته الشيطانية :
* الكونت ريموند ! يالها من مفاجأةٍ غير مُنْتَظَرة ! لكنّها سَارة على أيّة حالٍ ؛ فما ظننّا أنّك حيّ .
فَحَدجه ريموند بنظرةٍ غاضبةٍ لكنّه لم يردّ .
فأدرك عليّ ذلك و قال مُفَسِراً :
* لقَدْ بلَغَتنا أخبارك السيئة .
فقال ريموند مُداهناً :
* ألا يَخْفى شيءُ على زَعيم الجبال ؟
فقال عليّ :
* عيوننا تنْتَشر في كلِ مكانٍ .
ثم أطرق للحظاتٍ ، و أضاف :
* لو لم تأتْ إلينا لأتينا نحن إليك .
ثم نهضَ من مجْلسه ، و توجّه نحو قِبْلَةٍ مُزَرْكشةٍ ، و جَلسَ جِلْسة القُرْفصاء..
بينما كان ريموند يسأل :
* و ما هو قولك ؟
فقال عليّ دونما أنْ يَلْتفت إليه :

تمسُّ الأرض مَسَّ أطياف لا تبصرها عينُ فى الظلامِ ، حتّى بَلغوا مُنْخَفَض عين مُراد ، و طَوّقوه تماماً ..

و عَنْدما لمعَتْ شمس اليوم التالى . و شَرَع جُنُودُ الحليفين فى الظهورِ من يَمّ المنخفض . شَدَّ النورانيون أقْواسهم ، و نَثَروا نبَالها فى الهواء . فحملتها الرّياح فى شَتّى الإتجاهاتِ ، و بَعْثَرتها هنا و هناك .. لتَستقر داخل القلوبِ الآثمةِ .. و أخَذَتِ الرِّماح تتطاير من أعلى لأسفلِ تطايراً صائباً ..

وبينما أخَذَ فُرْسان الفرنج يحثُّون خيولهم على صعودِ المُنْحَدر لملاقاة النورانيين من ناحية ، و من أجلِ البحث عن ملجأ يقيهم خَطَر الموتِ المُحْدق بهم من كُلّ جهة ؛ هَبّتْ رِيحُ عاتيةُ ، فَقَذفتْ أقْذاءها فى عيونهم ، و بين أرْجلهم، و من حَوْ لهم ؛ فعَرْقلتْ تقدّمهم ، و دَفَعتْهم للتراجعِ المميت . فيما كان النورانيون ينْقضُّون عليهم كالموتِ المفاجئ ، و سيوفهم و حِرَابهم لا تميِّز بين سيدٍ منهم أو عبدٍ ..

و من وسطِ تلك المَعمَعة .. إسْتلَّ فارسُ نورانىّ سَيْفَه من غمْده .. و انْطَلَق عَبْر ميدانِ المعركةِ فارداً ذراعَه فى الهواءِ .. و هو يجأر بصَيْحة بَلغَ دويُّها عَنانَ السّماء :

* الله أكبر !

ثم غَمَدَه فى صَدرِ رينالد ، سيِّد مرعش و كيسوم ، فصَرَخ صَرخَةَ ألمٍ و حَسْرة ، صَرْخَةُ زَلْزَلتْ نفوسَ أصحابه ، و هَوَى ، فدَهَستَه الخيلُ بحوافرها ..

و فى أثناءِ ذلك ، لَمحَ نور الدين جواد علىّ بن الوفا و هو يهمّ بالفرار، فهمس:

* رأس الكفرِ ..

ثم انقضَّ عليه كالصاعقةِ .. و ذَبَحه بحافةِ سَيْفه .. فأرداه قتيلاً ..

و هكذا ، تناثرت جُثث الفرنجيين مثلما يتناثر الذُّباب فى ساحةِ نهايته ..

و سادَ الصَّمت ميدانَ المعْركة ..

لكنَّ قلبَ نور الدين ظلَّ مُحْتَقناً ؛ إذْ أنَّ المعركةَ لم تنتـــه بالنســـبةِ إليـــه ، فأخَذَيبحثُ وسط سكونِ الجثثِ المتناثرةِ عن بُغْيته .. بينما فُرْسانه يتأملونـــه بدهشةٍ ..

و إذَّاك ، بَرَزَ من فوق تلٍ قريبٍ فرسٌ أشْهب ، يعْلوه فارسُ ذا شعْرَ فَضــيّ ، وهو يحمل بيديهِ رُمْحاً قَدْ وضِعَ فى رأسِ حربتهِ رأسُ بشَرىٌّ ..

فإلتفتَ إليه الفرسان .. و هللوا..

بينما تَمتَم نور الدين بفَرْحةٍ بَدَتْ على شَفَتيهِ :

* أسد الدين !

ثم وثبَ على فَرَسه وثبةَ فارسٍ شجاعٍ ، و لكَزه بقَدميه ، فسَرى به الفرسُ .. و صَعد المُنْحَدِر كالطيفِ ..

و هناك ، فوق قمةِ ذلك التلّ ، أخَذَ نور الدين الرُّمح من يــدىّ شــيركوة ، ورفَعَه لأعلى ، و هو يصيح :

* رأس الأفعى .. ريموند..

الرّحيل

لم يحْتَمِل كنراد وطأة الهزيمة التى أُبْتُلِىَ بها الفرنجُ ، وظَلّ غارقاً فى كوابيسِ من الذّكريات المُضنية ، أحالتْ بقاءه فى بيت المقدسِ جحيماً لا خلاص لـــه من آلامـــه .بينما نَظَرات أعوانَه من فرسانٍ وقادة تُشْبِه سهام اللّهب المُحْرِقَة ، وهو لا يستَطيع أنْ يتحاشَى حِقْدَهم عليه ، فآثر الرّحيلَ عن بلاد المشْرَق ..

و فى نهارِ أحد أيّامِ القيظِ الرّهيب ، مضَى فى طريقه .. راحلاً بلا رَجْعة ..

أمّا لويس فقَدْ ظَلّت الأوهام تأكل رأسَه ، و بَقِىَ علـــى أمـــلِ النّيـــلِ مـــن النورانيين..

و طالتْ فترة بقائه دون رَجَاء ..

و بعدَ زمنٍ غير قليلٍ قَضَاه بين العَتْرَسةِ و العَرْبَدةِ ، آيسَ من بَقَائه ، فـــإنْتَوَى الرّحيل ..

و هكذا ، تَبَايَنَتْ تلك الحملةُ بالرءوسِ مُنْكسرة ، و الخَيْبة وصْمَة على الظهورِ لم يتجَاهلونَها ، لكنّهم ظَلّوا على تَكَبُّرهم رُغْم خواء قلوبهم ، و عَقَدوا النيّةَ على أنّهم لابدّ سوف يعودون و لكنْ بصورةٍ أخرى و قلب نَبْضَه من إحَنٍ ..

و بَقِىَ منهم الكونت برتراند الصّغير ؛ الّذى أباتَ النيّة على الإغارةِ على إمارة طرابلس الوافرةِ الغِنى ؛ إذْ أنّها تَخْضع لإمرةِ إبن عمٍ له ، يَرْتاب هو فى أنّـــه قاتل أبيه .

لذا ، فقَدْ تَهاون فى الرّحيلِ حتّى جَلاَء لويس بَحْراً ..

ثم سَيَّر رِجاله نحو الشمالِ؛ مُتظاهِراً برَغْبته فى الإبْحـــارِ إلى بلاده عن طريقِ

أنطاكية ، حتّى إذا ما اجتاز السّهل ؛ حيث تنفرج البقيعة جهة البحـــر ، تحوّل عنها إلى الداخلِ متجهاً إلى طرابلس ..

حصنُ العَزيمة

و ذات ليلة شتوية عاصفة مُعْتمة ، تسلّل برتراند و رجاله خلْسةً إلى داخـــل الحصنِ ، الواحد تلو الأخر ، و انتشروا ، فلم يَشعر بهم أحدُ مـــن حُمـــاة الحِصنِ ، إذْ أثارتْ الرّيح الصحراءَ من حولهم ، و بعثَتْ أقذاءها ؛ فعَصَبَـــتْ عيونهم عن الإبصارِ ..

و عندما هدأ العَصْفُ فى الصباحِ التالى ..فتحَ الحِصْنُ عيونه ليُبْصِرَ أشْـــخَاصاً غير أولئك الّذين يُبْصرهم صباح كُلّ يَومٍ جَديد ..

الإستيلاء على حصْن العَزيمة

وعندما عَلِم كونت طرابلس بما أُبْتلِىَ به ، و فُقْدانه حِصْناً يَخْضع لإمْرَتـــه ؛ كادَ أنْ يشتَّ من نَفْسه ، و ثَارَ ، فبَدا كأنْ لا عَقْل له ..

و بينما هو لا يزال على ثَورَته تلك ؛ إذْ سيّر قواتاً هَزيلـــةً صَـــوبَ الحِصـــنِ المُغتَصبْ لإنتزاعه عِنوةً من مُغْتصبيه ..

لكن رغْبَة برتراند المكْبوتة فى الانتقامِ قَدْ شَكّلَتْ منه إنسَاناً غَيْرَه ، حوّلَتْه من حالِ الخنوعِ و الإستحْياءِ إلى حالِ الضَراوة ؛ فكان كلّما حَضَرَته صورة أبيه يَفْقد لجام نَفْسه ، و يُبْدى ما لا يحْتملَه غَيْره .

لكلّ ذلك باءَتْ قوات ريموند ، إبن عمّه ، بهزيمة ..

و إرْتدّتِ إلى طرابلس فى أسوأ حالٍ ..

و لم يَجدَ ريموند سبيلاً للخروجِ من تلك الأزْمة إلاّ نورالدين ؛ الّذى بَدَا لـــه شُعَاع نورٍ يَلوح من بَعيد ، فأرسَل إليه مُسْتَنجداً به..

و فيما يلى ذلك ..

أبْدى نور الدين حَمَاسةً ، ليسَ لنَجْدة ريموند ، و إنّما لغَايـــة فـــى نَفْســه ، فخَرَج على رأسِ قُوّة من خيرَة رجـــاله ، و انطَلقوا خلال الصّحراء كمَرَدَة لا يُعَرْقلهم شَيئ ..ثم استَولوا على الحصْن .. و دَمّروه ..

و لكنْ بَعْد أنْ صَار برتراند و أخْته أسيرين بين يَدىّ النورانيين ..

الصورة الثانية عشر

إمْتحان

كان يومُ من أيّامِ الرّبيعِ الصّافية ؛ عندما اجْتَمعَ الأمراءُ النورانيين فى حَلَقـــة حولَ عَرْصَة من العرَاصِ الحَلبية ؛ يُتَابعون بقلوبهم مَوْلد فارسٍ جَديد ..

و قَدْ بَدأتْ المُبَارَزَةُ بين : نور الدين ، القائد ، و صلاح الديـــن ، الفَتـــىّ ، وكانتْ غيرَ الّذى ظنّه المُتفَرّجونَ من خَاصّة صلاح الديــــن و ذَويــه مـــن الأمراء..

و قَدْ إستَلّ المُتَبَارزان سَيْفَيْهما برَشَاقَة و خفّة .. و أخَذَ كلاهمـــا يَضْــربَ سَيْفَ الأخَرَ بقوةٍ مُتوازنة .. و استَمرّا على حَالهما وسطَ صياحِ المُتفرّجين ..

و مضَى من الوقتِ غيرقليلٍ .. عنْدما أحسَّ نور الدين بالتعبِ يَخْذُل ذراعَه ..

و لَمَحَ صلاح الدين ذَلك فى عينىّ خصْمه .. فعَاجَله بغَمْسَة قوية .. كادَ نور الدين أنْ يَسقُط بسَبَبها .. فَخَشىَ المُتَفَرّجون على قائدهم من السقوط ..

وصَاحوا .. لكنّه إتكأ بحرَكةٍ رَشيقةٍ منه على قَدمه المُتحَركة .. و اعْتَدلَ ..
ثم تَقَدَّم فارداً سَيْفه في مواجهةِ صلاحِ الدين .. و اسْتَدْعى خِبْرَته .. فضَرَبَ بسَيْفه سَيْفَ خصْمَه .. و أدَارَه دَوْرَةً سَريعةً و مفاجئة .. ثم دَفَعَه بِقوةٍ مــــن يده .. فأسْقَطَه بَعيداً ..
و عندئذ ، بَدا صلاح الدين بغَيرِ سلاحٍ يُدافِع به ..
فأوقَفَ نور الدين المُبَارَزَة ، و دَنا من صلاح الدين ثم رَبَتَ بإعْجابٍ علـــى كَتفيه ، و قال بإبتسامة :
* أحسَنتَ أيّها الفارس ! لكنّك تَحْتاج إلى الخِبْرَة .
أعْطَاه سَيْفَه ..
ثم التَفتَ إلى نَجم الدين أيوب ، و حَدَّثه قائلاً :
* ولَدُكَ فارس شُجاع .
و فَرِحَ صلاح الدين لمَا سَمعَه ، فوثبَ فوق صهوةِ فَرَسه الأسْود كظلامِ الليلِ وثْبَةً مُتَمَيِّزَةً ، و انطَلَقَ بأقصَى سُرْعةٍ .. ليَقْفزَ الحَواجزَ المُتناثرة ..
بينما المُتَفَرجونَ يتأملونه بإعجابٍ ..
فقال نور الدين :
* لستُ أمانع في ضمِّه إلى صَفوفنا ، لعلّه أنْ يصير قائداً من قادةِ النورانيين .

الصورة الثالثة عشر

حَزَنٌ

ظَلَّ نور الدين حَبيسَ آلآمه لأيَّامٍ طوالٍ ، لم يَبْرَح خِــلالها جُدْرانَ بيته ، فقَدْ

آثَراً لا يُخالطُ النّاسَ فى تلك الأوقات العَصيبة من حَياته ، لاسـيّما أنّ وفـاةَ أخيه وشَريكَ رحْلَته ؛ سيف الدين غازى ، لم يَمْضِ عليها أكثر من بضع أيّام معدودات ، أيّام مَرّتْ عليه كأنّها سنين طوال ..

فلمّا طَال انْقطاعه عن النّاسِ . تَحيّرَت زَوْجُهُ في شَأنه ، وَاستَدعتْ شيركوة . فحَضَرَ إليْهَا . فحَدّثَته من وراءِ حِجَاب ، و قالتْ له :

* إنّ نور الدين قَدْ استَسلَم لما هو فيه ، وليسَ بإمكان أحد سواك انتشاله من أزْمَته ، فإنّك أقرب النّاس إليه ، و هو يُنصتَ إليك جيداً ، فاكتب له كتاباً، لعلّه إذا قرأه أنْ يَخرج إلى النّاسِ ، رَحِمنا الله جميعاً .

ثم لَزمتْ الصّمت . فقال شيركوة :

* الّذى أعْلمه حقَ العِلم أنّه لا يَدَع شيئاً يتمكّن منه حتّى يغلبه ، هكذا هـو منذ صباه ..

ثم كتبَ إليه يقول " أىْ نور الدين ! فإنّى ما رأيْتكَ مُنْذ أيّام . فلعَلّك فـى سَلامة! .. أُذَكّرُك أنّ أمْرَك بيد غَيْرك ، و أمْرُ النّاسِ أمانة بين يَديك ، فإنْ لم يَكُن حُزْنك حائلاً بينك و بينهم ، فارْجع و لا تُغَالبَ قَدَرك " .

ثم طَوى الرّسالةَ ، و تركَها ، و رَحلَ ..

مُبَادَرةُ

كادَتْ الأفْرَاسُ النورانية البَارِقَة أنْ تَخْرِقَ الأرضَ كلّما وطئَتْ الطريـقَ إلى بَصْرى ، فقَدْ أرادَ نور الدين و فُرْسَانه أنْ يَسْبقوا الزمن السّارى فى سَرَائرهم، و لم يُثْنِهم ذلك الليـل المتتابع عن عَزْمهم فى التَقّدم ، و لم تُعرقلهم الرياح

الصَحْراوية عن التهام المسَافاتِ المتلاحقة ..

و استمروا فى السّير المتواصلِ عدةَ ليالٍ و نُهُر ..

و ذَاتَ مسَاء ، فوجئ السِنْجاريون بقوةِ نور الدين تُباغتهم ، و كانوا يَعْلَمون عنه قبل ذلك عَدْلَه و قوّته ، فأسْلموا أمْرَهم ، واسْتسْلَموا له ، وأعْلَنوا الولاءَ. فإطْمَأنَّ هو إليهم و مَضَى عَنهم فى طَرِيقه إلى بصْرَى ..

و لَمّا عَلِمَ أُمراءُ بَصْرى بخَبرِ قُدومِ نور الدين إليهم ، إلتَبَس عَليهم الأمر ؛ فظَنّوا أنّه إنّماقَصَدَهم بغاية السّيْطرةِ على حُكْمِ بَصْرى التىحَكَمها شَقيقه سيف الدين حتّى الزّمن القريب .

و قال قُطب الدين مَوْدود مُحَدِّثاً أخويه : جمال الدين ، و زين الدين ؛ عَنْدما نَصَحاه بقِتالِ نور الدين :

* ليس من الصواب قتاله ؛ لإنّه شَقيقُنا ، و إنّا عظّمن مَحلّه عند السُلْطان ، و ما هو بصَدده من الغُزاة ، وجَعَلْنا أنْفُسنا دونه ، و باتَ الفرنج يُعظّمونه ويهابونه ، فإذا لاقّيْناه ، فإنْ هَزمناه ؛ طَمع السُلطان فينا ، وإنْ هَزَمنا هو طمعَ فيه الفرنج ...

فُبهتَ كلاهما ، ولَزِما الصّمت ..

و لَمّا حَضَر نور الدين إلى الموصل . و رأوه بأعْينهم . كان حَزِيناً حَزيناً . فأدْرَكوا حقيقةَ الأمْرِ ، و أيقَنوا أنّه إنّما أرَاد تَثْبيتهم ، و اسْتراحوا إلى ذَلك ، ثم حَكّموه بينهم . فصَار الحُكم إلى قُطْب الدين مودود . وأيّده نور الدين بجنودٍ من فُرْسانه ..

ثم رَكب عائداً إلى حلب ..

الهزيمة

كانتْ الشّمس تَسْحَب أخر خيوطها تأهباً للرّحيلِ . و السّماء تَلونتْ بحُمْرَة داكنَة و شحوبٍ مُعْتم . فبَدا تَلُ باشر بأسْرِه واهناً واهناً ، لا سيّما قُرْبَ تلك الحَافّة الصَخْرية التى تُشْبه رأسَ نَسْرٍ فى نُعَاسٍ ، حَيْث اصْطَفَ النورانيون تأهُباً لمعْرَكة جَديدة . بينما تَجمّعَتْ سرَايا الفرنجِ على مَرْمى البَصَرِ فى أشـــكالٍ دَائرية و ألبسَة سَوْدَاء . و الأغْبرةُ تتصاعد من حَوْلهم كأنّها أدْخنَـــة اللهـــبِ المُحْرِق ، فَبَدوا كشياطينٍ من الإنْسِ مُتَناثرة فى كُلّ مكان . فأرْهَب مَرآهـــم كذلك قلوبَ النورانيين . و أمّا نور الدين فقَدْ أحسّ بوخْـــزِ الألمِ المُفـــاجئ يَسْرى فى بَدَنِه سَرَيانِ الحُمّى فى جَسَدِ المَحْمومِ ، فلم يُبْدِ لأحدٍ من أصْحَابه حَقيقة ما يشعُر به ، و تماسَك ..

لكنّ حَدْسَه لم يُطاوعه هذه المرّة ، حتّى أنّ صوتَ نَفْسه أخذَ يُردد :

* أيّها الوغد جوسلين ! إنّك لا تيأس أبداً ..

و رُغمَ كُلّ شئ ، و رُغْمَ إبائه ؛ اضْطَر نور الدين إلى البدء فى الهجومِ ..

و التَحَم الجَيْشَانُ .. و دَارَتْ حَوْمَةُ المَعْرَكة ..

كانتْ تلك الليلة غير مُقمرة ، و الظُلْمةُ أصَابتْ النّفوس قبل الأبْصارِ ، فصَار كُلُّ شئٍ مثل أىّ شئٍ . و لم يستَطع أمرؤ رؤية ما حَوْله ، و لم يُميّز أحدُ بين صَاحبَه أو عَدّوه.بينما أخَذَ الفرنجيون يَتحركون بحرّية و خفّة أكثر ، إذْ أنّهم يرْتَدون السّـــواد ، و يَعْشقون السّواد ، فلم يبْرز منهم غير أشْباه تتحـــــرّك هنا أو هنـــاك . و النورانيون لا يكادوا يفقهون شيئاً حَوْلهـــم .. فوقَعَـــتْ الكارثة ..

و هكذا ، تمكّن جوسلين من انتزاعِ النّصْرِ ..
و أُسِرَ خَازِن السِلاح بين سائرِ الأسْرى النورانيين ..

نَظْرةُ أمَلٍ

.. حَمَل نور الدين وطأةَ تلك الهَزيمة فوق ظَهرِه جبالاً ثِقَالاً ؛ كـادَتْ أنْ تَكْسره لولا يَقينه المُتَنامى فى صَدْره بأنَّ جوسلين لَنْ يَظلَّ طَليقاً بلا قيـد ، وأنّه حَتْماً سَيقع بين يديه .

فقَدْ تَحوَّل الأمْرُ إلى ثأرٍ شَخْصىّ . بخاصّة أنَّ جوسلين قَد إلتجأ بعْدَ ذلك إلى السُلطانِ و هو يَحْمِل سِلاح النورانيين إليه ، و قال له :

* هذا سلاح رجالك و سوف يأتيك منى ما هو أعظم !

فلمَّا وجَدَ نور الدين أنَّ جوسلين قَدْ جَمحَ ، و راح يُسيئ إلى النورانيين بشتّى السُبلِ ؛ أصرَّ على أنْ يَخْلص منه إلى الأبدِ ، فجَمـع بِضْعـاً مـن الأمـراءِ التُرْكمان، وبذلَ لهم العُطايا بوفرةٍ ..

فإنْصاعوا لأمْره ..

شَكْم المُشاكس

المُطاردة :

عِندما خَرَج جوسلين إلى الصّحراءِ فى مِسْلاخِ الصَّيد ؛ تَبعَه بضْـعُ فُرْسانٍ تُركمانيين ، و تَرَبّصوا به، حتّى أنْ واتَتْهم الفُرْصَة ، فتَفـرَّدوا بـه ، وطَاردوه مُطاردةِ الأُسُود لشَادن رَهيف ، و رَموه بِحبلٍ ، فطَوّقوه ، و عَرْقلوا جَوادَه فجأةً ، فزلّتْ أرْجله ،و هَوى به ..

عندئذٍ ، تكالبوا عليهِ ، و ربَطوه بِحبالٍ مُحْكَمَةٍ فى مؤخرةِ جَوَاده ، وسَحَلوه عبْر الغاباتِ حتّى حَلب ..

اللقاء :

ما لَبثَ نور الدين يُبْصِر جوسلين واقفاً قُبالته فى قيوده ، و رَثّاثةِ هيأته، و جَسَده المُلَطّخ بالدماءِ الممتزجة بأتْربة الهوان ؛ حتّى شَعَرَ بتلك الرّاحةِ الأثيرة تَسْرِى فى كيانهِ مثل الشّعور بالفَرْحة بَعْد طولِ الحَزَن ..

و قال له بلهجةِ الظّافرِ :

* لقَدْ وقعتَ فى قَبْضَتى عِنْدما أرادَ الله ذَلك .

فحَاولَ جوسلين الإنْفلاتَ من قيودهِ ، و هو يصيح :

* لقَدْ خَدَعْتَنى ! لكنّك لنْ تَفْلتَ مِنّى .

فقال نور الدين :

* ألا تَفْهم أنّك انتهيتَ إلى الأبَدْ .

ثم إلتَفَت إلى الحرسِ ، و هو يقول :

* لا تَجْعلونَه يَرَى للحياةِ نُوراً بعد الأن ، خُذُوه !

فأخَذوه جَرّاً . بيْنما هو يُحاول الإنْفلاتِ من قَبْضَتهم ..

الكابوس

ما بين الوهمِ و الحقيقة ألفيتُ نَفْسِى هائماً .. و الظُلْمة تَحْتَوينى فى رَحِمها.. بَيْنما عينـــاى لا تُبْصران شيئاً .. فسَقَطتُ فجأةً فى دَوّامة زمَنية أخَـــذَتْ تَدور بِىَ دورانَها الرَّهيب حَوْل الأرضِ .. ثم قَذَفَتنى من بَطْنها .. فَهَويتُ.. هَويت من الذُّرى الشُمّ إلى القاعِ ، قـــاعُ الأرضِ .. فــإصْطَدَمت بحيـــاةٍ شَديدة الصَّلابة .. فتألَمْتُ .. و لكنَّ أحدُ لم يشْـــعر بى .. تماســكت .. و مَشيتُ .. فرأيتُ النّاسَ يسيرون كأنَّهم التمـــاثيل .. لا حياة فى قلوبهم .. و رأيت النساءَ غير النساءِ .. و الرِّجال غير الرِّجالِ .. و رأيتُ أطفالاً .. أطفال تائهون بينهم و بينهنَّ.. يَبحثون عن هوِّيتهم .. و رأيت ناساً تَسْـــطع وجوههم بالنور .. لكنَّهم يتألَّمون .. و السِّياط تَلْذع ظهورهــــم .. و هُـــمْ يَلْهثون .. بَيْنما أصحاب الوجوه السّوداء يضْحَكون و يَتَنَعَّمون .. و رأيـــت أشْباحاً تُحيط بى .. تَجثُم على صَدْرى .. تَخْنقنى .. و أنا أُحَاول الخـــلاص .. أُحَاول و أُحَاول .. و لا جَدْوى .. فصَرخت .. صَرَخت بأعْلى صَوتٍ .. و لم يَسْمَعنى أحَدُ ..

بَعْد اللقاء

قلت لنور الدين :

* لقَدْ حَلمت ليلة أمس .

ثم أطْرَقت لِفَترةٍ لا أعْلمها ، و أضَفت بعد ذلك :

* أحْسستُ بالخَدَر من شدّة الهَمّ و الغَمّ ؛ فأخْلَدت للرّاحة بَعْض الوَقْت ، هَكَذا أنا كُلّما حَاولتُ الهروب من نَفْسي ؛ أسْعى إلى النّومِ ، لكنّي لم أجد سَبيلي إليه مُمَهّداً ، فقَد هاجَمتني صورٌ كثيفة و مُتلاحقة ، أحَالتْ نَوْمي إلى كوابيسٍ شتّى ، حتّى كادَ ذلك أنْ يُصيبني بالجنونِ . فصَحَوْت من منامي فَزِعاً .

و حَكيتُ له الّذى حَلِمتُ به ..

فقال لى :

* إنّها هموم زَمَنك . أنتَ تَحْملها فى صَدْرَك بِكُلّ أعْبائها . و هى تَشْغَلك كثيراً .

فقلت :

* لأنّه زَمنى ! فيه ولِدتُ و فيه أموت .

فقال :

* لكنّك تَهْرَب منه إلى غَيْره ! أنتَ تَبْحث عمّا يُلائم هَوى نَفْسَك ، لقَدتَجاهلت أنّ لكُلّ زمانٍ قَدَره ، و نَسيتَ أنّ واجبك فى زَمنك هو مواجهة الّذى تَكْرهه بالّذى تُحبّه .

ثُم تَرَكنى و مَضَى ..

فَشَردت فيما يَحْدُث لو كان هو فى مكانى ..

الصورة الخامسة عشر

مُهمّة سرّية

بَعْد فَراغهِ من قرائتها ، طَوَى نجم الدين الرّسالة ، ثُم قال للرّسولِ القادم إليه

مَنْ قِبلِ نور الدين :

* عُدْ أنت إلى حلب ، و أبْلغه أنَّ ظَنَّه فى مَحَله ، و أنَّ مُجير الدين يَتَعامل مع الفرنج ، و أبْلغه كذلك أنِّى لن اهدأ حتّى أُنَفِّذ ما أَمَرَنى به .

و خَرَج الرَّسول فى التّو ..

بَيْنما دَعا نجم الدين أحدَ رِجاله الثُقاة ، و حَدَّثه قائلاً :

* سأرْسِلك فى أمرٍ سرِّى إلى تمرتاش بن أرتق ، أمـــير ماردين ، فإذا بَلَغْته قل له..

و دَنَا منه حتّى صَار مُلاصِقاً له ، و أخَذَ يَهْمس فى أذُنه ..

فيما يلى ذلك

الخَديعَةُ

.. فى ذَلك المساء ، بَعْد أنْ أنْهَى المُكَلَّف من قِبَلِ نَجم الدين مُهمَّته ، و ارْتَدَّ عائداً إلى حَيْث كان . خَرَج تمرتاش يَقُود قُوّةً من الفُرْســـــان التُركمـــان ، وتَوجَّهوا صَـــوْبَ دمشق إذْعَاناً لإرادة نَجم الدين ، و لرَغْبَة منه فى ذَلـــك ؛ إذْ أنَّه أباتَ النِّية مُنذ زمنٍ طويلٍ ، لكنَّه تَحَيَّن الفُرْصَة حتّى لاحَتْ له ..

ثم أنَّهم لَمَّا بَلَغوا دمشق فى مُنْتَصف ليلِ يومٍ آخَرَ ، إذْ دَخَلَ تمرتاشُ علــــى مُجير الدين فى مَجْلسه بالقَلْعَة الحَصِينَة ، و كان قَبْل دُخوله عليه قَـــدْ مَـــزَّق ثِيابه ، وعَفَّرَ هَيئَته ، فَبَدا رَثّاً مُحْتَاجاً من عَنَاءِ السَّفرِ الطويل ، و حَدَّثه قائلاً :

* لقد أرهق السّفر رجالى ، و استنزف ما لدينا من ماء و طعــــام ، ونحـــن فىطريقنا إلى بيت المقدس ، نَسْعَى للنيلِ من بلدوين ؛ فَهو علىخِلافٍ مع أُمِّه الملكة . و الفرصَة سانِحة لنا . لِذا أتيتك طالباً منك العَوْن .

لكنّ مجير الدين المُتَلَوّن كالحرباء حَاولَ إحْباط تمرتاش عن الإسْتمرارِ فى سَعْيه، وقال له :

* لست أنْصَحك بهذا ، فإنّ فيه الخَطَر عليكم ، و ما لَدَيك ليسَ كافياً حتّى تنالَ منْهم كما تدّعى . عُدْ إلى حيث كُنتَ ، هذا أكرم لك .

فقال تمرتاش :

* حَسْبُك أنت أنْ تَظَلَّ هَهنا كامناً ، فإنّ عَزْمى على المُضِـــى أكيـدُ ، و لا يَمْنَعنى إقْعَاؤك هذا .

ثم مَضَى ..

بَيْنما نَظَرات مجير الدين تَتْبَعَه بنيَّة الغَدْرِ ..

فيما يلى ذلك

.. فى صَبيحة يومٍ تالٍ ، عَرّجَ تمرتاش و رجاله على جَبَلِ الزّيتون لزمَنٍ غَــير طَويلٍ . و قَدْ اتخَذُوا خلال تَعَرِيجهم الحــــذرَ المُطْلَــق ؛ حتّــى لا يَشْــعُر بوجودهم أحَدُ مِنْ عيونِ أعْدَائهم . و بَيْنما هُمْ كَذلك ؛ إذْ فوجئوا بحاميـــة بيت المَقدسِ تُبَاغتهم من كُلِّ نَاحية ، و لم يَتْركوا لهم فُرْصَة الفَــرارِ ؛ فَقَــدْ أغْلَقوا عليهم جَميع الثّغَرات المُمْكنة . فَلمْ يَجد التُركمانُ سَبيلهم إلى النَفــاذ من مأْذَقهم غير تَنْفيذ أمْرِ قائدَهم تمرتاش بالمواجَهة الفَرْدية ..

و ظَلّوا يُقَاتلون جنودَ الحَامية بإصْرارٍ على الفَوز ، فصَارَ الرّجلُ منهم بعَشـــر من أمْثـــال أعْدَائهم . و استَمرَّ القتـــالُ حتّى الْتَهبـــتْ شَـــمسُ ذلــك النَّهار، وسَلّطَتْ قَيْظَها على جنودِ الفرنج ؛ الّذين أبْدوا عَجْزاً ظَـــاهراً عـــن الإسْتمرارِ لِزَمنٍ آخَر .

فإتّحد بَعْضُ منْ التُرْكمانيين على أضْعَفِ رِجال الحَامية مَقْدرَةً ، و هاجَموهم بعُنفوانٍ ، فَخلْخَلوا صفَّهم ، و أحْدَثوا بينهم ثُغْرةً ، ثم نَفَذوا منها بجيادِهم .. و تَبِعَهم الأخَرون ..

و انْطَلَقوا فى طَريق عَودَتهم عَبْرَ نهرِ الأردن ، لكنّهم أيْقَنوا أنّ غَدْرَ القريبِ مُثل الحَياةِ حينَ يَمْنَحها المَرءُ ثِقَته .. فتَغْدُر به ..

الشعور بالمرارة

و لَمّا عَلِم نور الدين بالّذى أصَابَ تمرتاش ، شَعَر بالمرارة تملأُ حَلْقَه ، و أيْقَنَ أنّ مُجير الدين مثل الذُّباب الّذى يَرْضَى بالعَفنِ لِنفسه بَديلاً عن الطُّهرِ ؛ فتوَجَّع ، و غَضِبَ غَضباً لم يُبْدِ مثله قَبْل ذلك ، و قال آسِفاً :

* ما أبعَده عَن الوفاءِ و الرَّحْمة !

ثم أقْسَم على ألاّ يكون بمِثْله رَحيماً ..

و انْتَوى أنْ يُوقعه بمثلِ ما ارْتَضَاه لِنَفْسِه من الذُّلِ و المُكْرِ ..

فى أثناء ذلك

لم يَكْتَفِ مجير الدين بخيانته التى أحَاطَتْ به ، و هَوَتْ به إلى الدّرك الأسْفَلِ منَ النّارِ ، و إنّمَا عَاثَ فى رَعيّته ، و جَثَم فوق أنْفاسِ النّاسِ مثلما يَجْثُم الصَخْرُ على أتونٍ منَ الحِمَمِ المُلْتَهبة ، ثم أنَّه مَكّن بلدوين و أتباعه من الإنتشارِ فى شتّى أنحاء المدينة ، و جَعَل لهم حقوقاً على شَعْبه . فإلتَهَبَ النّاسُ، وأمْسَتْ أفئدَتهم مُنْتَفخةً مثل الجِراح المُهترئة ؛ لا دواء لها و لا شِفاء من آلآمِها ، فإنتشَرَتْ رُوْح الغَضَبِ بَيْنهم ، و غَمَرَتْ الكَراهية نَظَراتهم ،

سَادَ الفقرُ . فإسْتَحالتْ الحيَاة هناك ، و صَارَتْ دمشق برُمتها مثل عجــوزٍ تَحْلم بالكثيرِ و لا تُدْرِك ما تَحْلم به .

فيما يلي ذلك

المصْيَدةُ

المَشْهدُ الأول ... نَجم الدين أيوب يُذْعِن لأمرِ نور الدين ، يَغْــرِسُ أتْباعَــه ومماليكه هناك ؛ حيثُ يُعَشّشُ القَلقُ في دمشق . يَنْتَشروا فـــى الأسْــواق ، يَتَغَلْغَلوا بين النّاسِ ، يَمتْزجوا بهم ، يُثيرونَهم ، يُذْكون حمَم الغَضَب فيهم ، يُطْلقون سهَام اللهب المُحْرِقَة من صدورهم ، يُصيبون مجير الدين فى الصَميمِ..

المَشْهَدُ الثانى... يَدْخل رسولُمن قِبَلِ نورالدين على مجيرِ الدين فـــى قَلْعَتــه الحَصــينة ، يَقرأ عليه رِسَالة نور الدين (لَقَدْ عَلمنا أنّ جماعةً مـــن أعْيـــان دمشق يتآمرون ضدّكم ، و أنّهم لنْ يمهلونَكم حتّى يَنَالوا منكــمَ ، فلتَحْــذر خُطاهُم ، و تَرَبّصُ بهم ، فإنْ تَثَبّتَ منْهم ، لا تُمْهلهم ، و إلاّ سَيَكونَ قَدَرُك أعْجَلَ منْك) ، يُغْلق الرّسولُ رِسالتَه ، و يَمْضى ..

يَسْتبدُّ الذُّعر بمجير الدين ، يَخْلبَ رُشْدَه ، يَعْبَثُ به ، يُوقظَه فى لَيْله و نَهاره. يظَلُّ لأيَّامٍ طوال يَجمع أدلّته الزّائفة ..

و ذات يومٍ مُقدّرٍ ؛ يُنَفّذ فيهم عقَابه ، فيَسْلبهم أعزّ ما لَديهم ؛ حياتهم ..

و هكَذَا ، يَغْدُر هو برفاقه ، فيَهْجره الأمانُ ..

المَشْهَدُ الثالث... يَظْهَرعند الباب الشّرقى لمدينة دمشق جَيشُ نورانىُ رهيبْ . يُرْسِل قائدَهم شيركوة رسولاً إلى مجير الدينِ يَستأذنه فى الدخول . يَرْتَجـــف قلب مجير الدين ، يَخْشى ملاقاة شيركوة ، يرفضَ ، يُصِرّ على رَفْضه ..

المَشْهَدُ الرَّابع... نورالدين يُبْدى استْيَاءه - رُغم تَوقعه لمَا حَدُث قَبْل حُدوثه - و يُعْلم مجيرالدين أنَّ رَفْضَه لم يكن غير ضَرْبَة موجّة إليه ، يَلْتَمسُ لنفســـه الحقَّ ، يُعدُّ جَيْشهُ ، و يُطلقه إلى دمشق ..

و هناك .. حَيْثُ غَفَتْ المدينةُ على أحْزانها ..

و حَيْثُ عَشَّشَت الكوابيسُ فى أوكارِ النُّفوسِ السَقيمة ..

حَيْثُ يئسَ النَّاسُ من القَسْوةِ و الظُلمِ اللانهائى ..

تسَلَل بضعُ من الفرسانِ النورانيين إلى ذلك القلبِ الدَّامى ، و فَتَحوا الأبوابَ الشَرقية على أخرما فيها ، فتَدَفَّق السَيلُ الفَياضِ دون مانعٍ أو سَدٍ ..

فدَخَل نورالدين وسط التهليلِ و غناء المُحْتَشدون ..

و منذ ذلك الحين زالت هُمومُ النَّاسِ ، و رُفعَت عن صدورهم أثقال الأمـــس القريب ، فتَبدَّلت أيَّامهم ، و رأوا للحياة وجهاً أخَر فيه من البَشَاشَة مـــا لم يُدْرِكونَه من قَبْل ، و فيه من الرَّحْمةِ ما كانوا يحلمون به ..

عَوْدٌ لذى بدء

الرَّجوع المؤَقَّتْ

تُداهمنى أشْباحُ مُنْتَصفِ الليلِ ، تَطْرُق بَابى بقوَّة ، أنهضُ من نَوْمى فَزعــاً . فَيَنْقَطع منِّى حَبْلِ التواصلِ مع الحلمِ الّذى كُنتُ أُعَايشه . أفْتَح البَـــابَ ، و لا أجدُ طَارقاً ، أعود إلى فرَاشى و أُحَاول النوم من جَديد ..

و لَكنَّ الكَرَى يفرُّ من بين عَيْنَيّ ..

أُحسُّ بالمَلَـــلِ يَتسلل إلىّ خلْسَـــة ، يَتوغَّلُ فى كيانى ، أتَثاءب ، أُغْلق عَيْنَيَّ؛

أأرَى خَفَافيشَ تحوّم حَولى فى الظّلام ؛ وكُلّمَا دُنَتْ منّى تَزْداد نَفْسى كآبةً ، فلا أُدْرِكُ شيئاً غير تلك الهَوْشَـــة المُرَابطَة فى رَأْسى. لَقَدْ صِرْت بها كالمجنون؛ أوكالرّاقدِ فى عينِ الشّمسِ الحَمِئة ..

و هَكَذا ، لا زِلْتُ أُعَايشُ دُنْياى ؛ و لا زِلتُ أهـــرَب منهـــا ، ولا زالـــتْ تُطاردنى هِىَ ..

أجلسُ على المقْعَد ، وأشَغّلُ التليفزيون ، أُخفِضُ الصَوت تَماماً ، و أُشَـــاهِدُه نصْف يَقظ ..

اللقطة الأولى ... فى مَجْلسِ الأمنِ ؛ حَيْث أقَرّت الدولُ إدَانة إسرائيل فيمــــا تَلْجأ إليه من إنْتهاكات لحقوقِ شَعْب فلسطين و الشُعوب الإسلامية ، بَيْنمَـــا وقَفَ المَندوبُ الأمريكى - و هو يُشْبِه فتوّة من فُتىٌ القُدماء - و اســـتَخْدَم حَقّ (الفيتو) فأحْبَطَ قرار الدُّولِ ، و ألْزَم الجَميع بالصّمت ..

حَوّلـــتُ قَناةَ التليفزيون ، و رَفَعتُ الصَوت نسبياً ، فَسَمعْتُ حكَايــــةً دون صورة ، و التعليق يقول (و لا يَزَالُ الولَد الشّقى يَعْبَثُ بِـــاللّعَبِ دون رادعٍ يُوقِفَه عِند حَدّه ..) فضَحِكتُ .. ضَحِكتُ حتّى البكاء ..

اللقطة الأخيرة ... جُنْدُ يَحْملون النّجمةَ السُداسية فى يَد ، و باليد الأخْـــرى يُذَبّحون نسَاءً .. و أطفالاً .. و رِجالاً .. و الدّماء تَسيلُ فوق التّراب مُهْدَرةً، والجُثَثُ تُدْهَسُ بلا رَحْمة .

عندئذ ، تردد صَوتُ نورالّدين فى رأسى :

* أنْتم رَضيتم لأنْفسكم بالذُّلِ و الهوان !

فأحْنَيتُ رأسي ، و أغْمَضت عَيْنَيّ ، فبَدَتْ لى صورَتُهُ ، و كان غَاضِباً _ على غير عَادَته – و قُلْتُ بصَوت لا يكاد يُسْمَع :

* أيْ نورالدين ! إنَّهم يَملكون أسْلحة الدَّمار الشامل .

فتَردد صوتَه فى رأسِى قائلاً :

* و هَل أنْتُم عاجزون عن امتلاكها ؟ و اللهِ ما أعْجَزَكم إلاَّ تَخَاذُلكم !

ثم اهْتَزَّت الصورة فجأةً ، و زالتْ ..

و شَعرتُ بَعْد ذلك بالخَدَر يَسْرِى فى كُلِّ كيانى ، فأسْلَمتُ نَفْسِى له تماماً ، ثُم غَفَوتُ ..

الصورة السادسة عشر

الأملُ الأخير

بَعْد أنْ تراكَمت الهَزائم فوق رأسَه ، و تَمَكَّن الغلّ منْه حتَّى ألْهَبه ، و جَعَلَه نَمراً شَرساً يَسْعى وراءَ جُموحه بشَتَّى السُبُل ؛ انْتَزع بلدوين المُلْك من بين فَكَّى أُمّه المَلكة ميليسند ، و بَاتَ رَاكداً بعَرينه فى بيت المقدسِ ، يَزأر من ثِقَلِ حمله الَّذى تَراكم مع هَزائمه التى أُبْتُلى بها ، و لم يَكُفْ عن الزَئير حتَّى واتاه عيد القيامة فى يومٍ طَال انتظاره له . فَتَوافد الحُجَّاجُ من شَتَّى أنْحاء البلدان . فسَعَى بَيْنَهم ، و استَّمال نفوسَهم بكُلِّ ما لَديه .. فَمالوا إليه ..

ثم حَشَدَ قُوّاته ، و دَعَمها بكافة أدوات الحَصار ، و أقْوى ما فيها بُرج متناهى الضَخامة من خَشَب متين ..

و تَحرَّكوا صَوبَ عَسْقَلانَ ذاتَ لَيْلَة شَديدَة السكون ..

و هناك.. عِنْد أسْوار المدينة الشامخةُ بروْعَة بُنْيانهـــا ، ذاتَ العيـــون المُطلّــة بنَظَراتها الشــاقبة على ذلك البَحْر الثائر ؛ ثَبّتَ بَلدويـــن قُوّاتـــه فـــى الأرضِ بحصارٍ لم يُشْهَد مِثْله قَبْل ذلك ..

و عَسْكَروا عدّة أشْهُر تَغَيَّرَتْ خلالها صُور الأيّام ..

عدّة أشْهرٍ ؛ ظَلَّ البُرج الخَشَبى يَقْذف خلالها المدينة بحممه المُلْتَهبة ، و نَارُ الغـــلّ لا تَخْمَدُ فى الليلِ و لا تَخْمَدُ فى النّهارِ ؛ حتّى صَارَت الشــــوارع ، والبيوت ، و الحوانيت أكْواماً من رمادٍ تَذْروه الرّياحُ ..

و لَمَّا كانَتْ لَيْلَةُ غير مُقْمِرَة ؛ إذْ تَسَلَّل بضْعٌ من رجال الحامية فى عَسْـــقَلان إلى خَارج الأسْوارِ ، و أشْعَلوا النيرانَ فى البُرجِ الخَشَبى ..

لكنْ هَبَّتْ أنئذٍ ريحُ عاتية ، فأزاحَتْ البُرجَ عن مَوضعَه ، و ألْقَتْ به إلى سورِ المدينة ..

و عنْدما برَزَتْ شمسُ اليوم التالى ، كان السور قَدْ تَفَتّتْ ، وظَهَرت فيه ثَغْرَةٌ .

فإنْخَدع فُرْسان الداوية ببريقها المتلألئ فى عيونهـــم ، و تَوغّلـــوا إلى قلــب المدينة..

و فى مساءِ ذلك اليوم ، وقَفَ بلدوين و اعْوَانه يَتَأملون بعينٍ مُتَحَسرَة جُثـــثَ فُرسانهم المُعَلّقة فى ثياب الموت الساكن على أسْوار المدينة ..

و فى الليلِ ، بَعد أنْ أرْمَسَ قَتْلاه ؛ دَعَا بلدوين أعْوانه لعَقد مَجْلسَ الحَرْب فى خَيْمَته المُظْلمة إلاّ من ضوءِ خَافتٍ لبَعضِ الشموعِ المُتناثرة ..

و أمام صَليبهم المُقدّس وقفَ قائد النبلاءِ يُحَدّثهم بيأسٍ :

* لَقَدْ طَالَ بَقَاؤنَا هَكَذا ، و لم تَظهر لنا بارِقَة أملٍ فى النّصْرِ . إنَّهم يَعيشون حَياتهم بالدَاخِلِ . و المصْريون يَمدونهم بالمؤنِ عَبْر البَحرِ . بَيْنَما نحن لا نَتَقَدَّم خُطوةً . و الرأى عندى أنْ نَنْسَحب . فإنَّ فى ذلك الخير لنا .

فَرَد ريموند لوبييه مُقدم الإسْبتارية قائلاً :

* لا أيُّها القائد ! لا تَقُل مثل ذلك ، إنَّما أتينا إلى هنا ، وتكبّدنا المَشقّةَ البالغة من أجلِ الصليبِ المُقدَّس ، و لا سبيل لنا غير النّصْرِ ، فليس من المَعقـــول أنْ نتراجع عن مَعْركةٍ لم نَخْسرها بَعْد ، و ألأجْدَر بنا أنْ نَسْتمِر على مـــا نحـــن عليه.

فتَحَدَّث البطريرك فولشر بصَوته المُمَيَّز قائلاً :

* دعونا نُصَلّى للرّب و نَسْألَه أنْ يُبارك لنا حَمْلتنا هَذه .

و بَعْد الإنْتهاء من صَلاتهم أمام الصَليبِ ؛ جَلَسوا جميعاً فى سكونٍ ..

و شَرَد بلدوين فى ذكريات أمْسَه القريب ، فدَاهمته بَعضُ الذكرياتِ التـــى باتَتْ تؤرّقه ، و تُثير أشْجَانه ، فأبْدَى انفعالاته دونما أنْ يَشْعر . و قَـــد أدْرَك الحضورُ ذلك . لكنّه نَهضَ فجأةً ، و صَاحَ :

* لابُدَّ من أنْ نَسْتمر و ليحْدُث ما يَحْدُث !

و انفضَّ المجلس ..

إسْتسْلام ... و بَلَغَ الحقْدُ المُتَفجر قُوَّةً لم يَبْلُغها من قبل ، فـــإنْطَلَقت ألْســـنَةُ اللهبِ فى الهـــواءِ لتَحْرق كُلَّ شَئ تَقَع عليه ، و الجُندُ يَتسَـــلَّقون الأسْـــوارَ كقرَدة تَسْعى لإثَارة الشَّغَب ، و قادَتهم يَصيحون دون توقف ..

و هَكَذا ، تَعَرَّضتْ المدينة لأعْنَف هجومٍ مُنذ بدء الحَصارِ ..

وعلى الرُّغْم من كُلّ ذَلك ، لم يتمكن بلدوين و أعوانه من تَحْقيقِ حِلمهم في النّصرِ ..

و يئسوا من الإسْتِمرارِ ، فآثروا الرَّحيل ..

و بَيْنَما هَمْ يَهمُّون بالرَّحيلِ ، إذْ أتَاهُم رَسولٌمن قِبَلِ حَاكِم المدينة ، و أخْــبَر بلدوين برَغبةِ حُكومته في التنازلِ عن عَسْقَلان ..

و فَرِحَ بلدوين بِذَلك ، وفَرِح أعْوانَه ؛ فقَدْ أدرَكوا حلمهم في النّصْرِ بَعْدَ عَنَاءٍ و طول انتظار ..

و دَخلوا المدينةَ بهاماتٍ شامِخةٍ في أثْناءِ هَجْرِ أهلها لها ..

الصورة السابعة عشر

المُحَاكمةُ

* لقَد وثَقْتُ بك ، و مَنَحْتك أمَانة الإشْرَافِ على إيوانِ دمشق .

ثم خَفَضَ نورالدين صوتَه :

* مَنَحْتك شؤُونَ الجيشِ و مصَالِح النَّاسِ ..

ثم رَفعَ صَوتَهُ فَجأةً :

* لكنَّك خُنْتَ يا حَلَبى !

و أضاف بِصَوتٍ حَزِينٍ :

* خُنْتَ الأمانةَ ، خُنْتَنى ، و خُنْتَ النَّاسَ .

فألقَى الحَلبى بِجسَده تَحْتَ قَدمى نورالدين و هو يَسْتَرحمه :

* الرَّحمة !

فقال نورالدين :

* لَقَد سَرقتَ أموال النّاسِ ..

* الرَّحمة !

* ألم تُفَكر فى هؤلاء ؟ ألم تَشْعر بآلامهم ؟ ألم تُدْرك حاجات أطْفالهم ؟

ثم أطْرَق قليلاً ، و طَفَرت الدّموع من بين عينيهِ ، و قال بِصَوتٍ آسِفٍ :

* أنْتَ لم تَرْحَم النّاس ..

فَحاول الحَلبى تَقبيل قَدميه . فإنْتفضَ نورالدين ، ونَحّاه بَعيداً ، ثـــم قـــال بإصْرار:

* أخْشَى إنْ أنا رَحمتُك ألاّ أُرْحَم على ذَنْبى فيك .

الجَزاءُ

لم يَكُن الجَزاءُ يَسيراً ، و لم يَكُنْ مِثل جَزاء العَامَّة ، و إنّما ارَادَه نورالدين أنْ يكون عِبرَةً لكلِّ مَسئولٍ أُوتِىَ أمَانَةً بين النّاسِ و لم يَسْتَقِم ، و أرَادَه أنْ يُصْبِح ذِكرَى تَتَواترها الأجْيالُ ، و أرَادَ النَّاسَ أنْ تَرْتاح إلى عَدْلِه ، و أنْ تثِــق فـــى حُكْمِه فيهم ..

لكلِّ ذَلك كان شَديداً فى قَضَائه ..

و رَأىَ النّاسُ الحَلبىَ سَجينَ قَفَصٍ من حَديد ذى عَجَلاتٍ ، و رَأوا الحَـــرَسَ يَطوفون به شَوارِع المدينة و أذقّتها ، و رأَوا المُنَادِىَ يَصيح :

* هَذَا جَزَاء كُلِّ خائنٍ !

و جَعَلوا يَحْذفُونَه بالْحِجَارة ..

ثم رأوا الحَلَبى فى السِجنِ يُكَابِد آلام خيَانته ..

الوكْزَةُ الأولى

مرَقَ نورالدين ، و أخوه في الرَّضَاعة – محمد بن الدَّاية – إلى نُزْهَة قَصيرَة فى غابة تَعَـــوَّدا أنْ يَطَأنَها مُنذ نعُومَتيهِمَا ؛ فهى تَحمل لهما ذكريـــاتٌ كَـــادَت الأَيام أنْ تُسقطها فى يَمِّ النسيان ..

و جَعَلاَ يَتخَلَلان الأشْجار بفَرسيهما ، و الفَرْحةُ فى عيونهم وَليـــدة طفولـــة قَديمـــة لَكنَّها لم تَمُتْ فى قلبيهما ، و هُمَا يُقْبلان ويفرَّان من مكان لغـــيره ، و ضَحكاتهما تملأ الغَابَةَ رَنيناً ، و يُرْسلان بَهْجَتَيهما عَبْر الأفاق الصافية ..

و بَيْنَا هُمَا يَفْترشَان عُشْباً كَثيفاً يَتَرَجَّيان السَّكينةَ بَعْد عَناء عَمَلٍ لا نهايةَ له . و كان النَّهار أنئذ يوشك على الرَّحيل ؛ عنْدَما نَظَر نورالدين إلى يُمْناه فَلـــم يَجد خَاتَمه فى الأوسَط منها ، فأخَذَ يتَلَفَّتَ حَولَه بَاحثاً عنه ، و لم يَجـــده ، فشَعَر بوكْزَة ألمٍ فى صَدْره ، لكنَّه تَجَاهلها . و أحَسَّ إبن الدَّاية بأنَّ فى الأمرِ ما يُقْلق صَديقَه و يؤلمَه ، فَدَنَا منْه مُستَفْسراً ، وعَلم حَقيقة الأمر . و عَـــادَا للبَحْث عن الخَاتَم مَعَاً حَيْثُما كانا يَرْكضَان ، فوجَدَاه بَعْد مَشَـــقَّة . و فَـــرِحَ نورالدين به ، و وثَبَ فوق صهوة الفرسِ ، و ركَضَ به بســـرعة قُصـــوى .. فدَهمَته الوكْزَة مَرَّة أخرى ، ولكنْ بصورة أكثر ، و خَنَقَته ، فأخَذَ يَترنَّح فوق الفرس من شدَّة الألم ، وكادَ أنْ يَسْقُط من أعْلى صَخْرَة . و لَّما رأى إبن الدَّاية ذَلك ، شعَر بالرَّهبة تَسْرى فى جَسَده ، فلَكز فَرَسه بقَدَميه ، و انطَلَـــق كالطيف إنْطلاقةَ فارسٍ ، و ألْقَىَ بنَفْسه فوق فَرَسِ نورالدين ، فضَمَ نـــور الدين إلى صَدْره ، و أحْكَم لجام الفَرَس ، فأنْقَذَه من سَقْطة أكيدة..

و بَعْد أنْ استردَّ نورالدين أنْفَاسَه ، و بَدأ يَشْعُر بالتحَسُّنِ ، هَمَّ بركوبِ فَرَسَه.
فأمسَكه إبن الدَّاية ، و جَذَبه بلُطفٍ ، ثم قال له :

* دَعْنا نَقْضى ليلتنا هَهُنا ، فإنِّى أخَاف إنْ أنت رَكبتَ عاودَتك الآلام .

فقال نورالدين :

* لا تَكترِثَ بَذَلك ، إنْ هى إلاَّ وكْزَة عابرة .

فنَظَر إليه مُشْفقاً عليه ، و قال :

* إنَّك تُجْهد نَفْسك أكثر مما يتوجَّب عليك ، تذَكَّر أنَّ لِبَدَنك عليك حَقّ .

فقال نورالدين بيقين :

* دَعْ ما فى يَد القَدر يسير لِقَدره ، و اسألنى عن الّذى أملكه لنَفسى .

ثم وثَبَ فوق صهوةِ الفَرسِ ، و ركضَ به ..
بَيْنَما تَبِعَه إبن الدَّايةِ و قَدْ عَلِمَ أنَّه يَحمِل فى صَدرِه سِرّاً دَفيناً ..

صورة عابرة

كان يومُ من أيَّام الشتَاءِ الباردة ، و الصَّباح فيه مُشْرِق – على غير المألوف – فى هذه الفَتْرَة من السَّنة . و قَدْ خَرَج بضعُمن الرُّعَاة التُرْكمـــــان يَقْتَــادون قُطْعانهم من الأغْنَامِ و الخُيولِ ؛ لإنْتجاعِ المَراعى الخصْبَة التى تَحفُّ بحـــدودِ بانياسِ ، فَبَدوا كَحبَّاتِ اللؤلؤ المُتَناثِرَة . و شَغَل مَنْظَرهم رَجلين من حَـــرَسِ بلدوين كانا يسيران عن كَثَبٍ من هناك ، فأثار نَفْسَيهما ، فأسْرعا بإخْبَـــارِ بَلدوين بالّذى شَغَلَهما . و اسْتَمالتْ الفِــكْرَة رأسَ بَلدوين ؛ إذْ كان غارِقاً

وقتئذٍ فى الدّيونِ بسببِ ميله إلى التَرَفِ و اللهــوِ ، فإنْصَاعَ لإلحاحِ نَفْسَـــه ، وبَاغَتَهم ..

رَدُّ الفعْل

و كَره نورالدين أنْ يَحْدُثَ ذَلك ، و حَنَق على بلدوين حَنَقاً شَديداً ، حتّـــى أنّه أمْسَى مُتأجِجاً كَبُرْكانٍ يَتَصَـــارع ما بدَاخِلَه ، فأرادَ أنْ يَصُـــبَّ جِمَـــمِ سَخْطَه على رأسِه و رُءُوسِ أتْبَاعَه ..

و لم تَمضِ بَعـــد ذَلك ســوى بضعِ أيّامٍ حتّى اسْتَرَدَّ النورانيون أصْحـــابهم سِرّاً ، ثم أشْعَلوا النيرانَ فى بيتِ المقدسِ ، و أفلوا عائدين إلى دِيَارِهم ، و لكنْ بَعْد أنْ خَمَدَتْ ثَورتَهم .

صُورةٌ من الذّاكرة

الصّدْعُ

حَدّثنى نورالدين ذَات مَرّةٍ ، و كان الألم مُرْسَلاً من بين حروفِ كَلماتَـــه ، والمَرارةُ تُجَفّف حَلْقَه أحْياناً فتعوّقَه عن الإسْتِرْسال ، قائلاً :

* كان ذَلك فى بِدَاية أيّامِ الخَريف ، حين تَذْبل الأوراقَ و تُنْتَزع من أفنانهـــا كما يُنْزع الوليد من حُضنِ أمّه ؛ إذْ مادَتْ الأرض فجأةً بمَنْ عليها ، واختَلّتْ تَحت الأقدَام كالأرجوحة إذْ تَميد بمَنْ فيها ؛ فَضَرَبَـــت الشـــام برمّتهـــا ، وانْشَقّتْ ، و زُلزلَتْ ، فهَوى النّاسُ و هَوت البيوتُ إلى دَمارٍ سَحيقٍ ..

فَما عَادَ أحدُ يَسْأل عن أحد فى مكانٍ قَريبٍ أو بَعيد ..

و أذْكُر أنّ نورالدين أمْسَكَ بجَبينَه إذّاك و راح يَمْسَح عليه بيـــد بَيْنَمـــا راح يَفْرِكُ أصَابعه فى اليدِ الأخْرَى ، و كان يُحَدّثنى بصَوتٍ شَجِي :

* لقد انفطر قلبي لما رأيته بعد عودتي إلى هناك : رأيت الصروح المشيدة أكواماً من الأتربة المتناثرة ، و رأيت الأجساد ..
ثم تعثرت الكلمات في حلقه ، فأطرق عن الحديث حتى أفاق من عثرته واسترسل قائلاً :
* تمددت الأجساد في سكون تحت الأنقاض ، لقد هزني ذلك حتى أنني كدت أفقد رشدي ، فلم أميز آنئذ بين هذا أو ذاك ، و بقيت على السهاد صامداً لأيام و ليال حتى أقمت الحياة بصفائها ، و لكن تحت شمس جديدة و أحلام جديدة ..

الصورة التاسعة عشر

ذبول الورقة النضرة

بدا الزمن بطيئاً في سريانه ، وكان النهار شاحباً مثل ذلك الجسد الذابل فوق محفة خشبية بين حياة لازالت أنفاسها تترقرق و عهد يحثها على البقاء لزمن لم يتجاهل ذكرها بعد . و العينان تتأملان تلك الأوجه الباسرة بنظرات يفوح منها الأمل و رياحين التمني ..

و هكذا ، كان نورالدين المتمدد ساجياً على محفته البيضاء بلون الموت ؛ كلما شعر بملك الفراق دانياً يستنهض عشقه ، و حلمه ، و عمره ؛ للإستمرار بجسده و روحه معاً ، لا لذات الحياة ، و إنما لعهد قد تربت نفسه عليه ، فكبر هو و كبر العهد معه ، فصارا شيئاً واحداً ..

لكل ذلك ، عندما هان و ذبل هو هان العهد على الطامعين ، فحادوا

وجَمَحوا ظَنّاً منهم في انَّ الجَسَدَ النّائم قد غَفَا إلى الأبَد ، و أنّه لـــن يُـــدْرِك صَحْوَته من جَديد ..
لَكنّه ظَلَّ يُقاوم بِصورةٍ أكثر و أكثر ..
حتّى أنْ وافاه يوم الإفَاقَة ؛ ففتَح عينيه المُتْعَبَتينِ على نورِ الحياةِ المُشْرِقة ..

الصورة العشرون

تحت دفء شمس جديدة

يَتماثَل هُوَ ؛ نَفْس الفارسِ الأسْمر ، فوق قمة ذلك التَلِ ، و فَرَسَه مَشْدود إلى سَاق نَخْلة مُثمِرَة بجواره ، و هو يَسْتَلهم دِفء الشمسِ السّاطعة في الأفقِ ، و لاتَزال عيناه شَاخِصَتين في اللامَدى بنفسِ القُوّة ، كأنّهما تَقرآن مـــا خَبـــأه الغَيب في جُعبتهِ من أسرارٍ ..

تَداعياتُ

-١-

رأيت شَبَحاً لرجلٍ أسْود القلبِ ، خُيِّلَ لي أنّه رينالدشاتيون ، كونت أنطاكية ، و هُوَ يَهْوي من فوقِ جَوادَه في شِبَاك صَيَّاد نوراني . ثم رأيتهم يُقيدونـــه بالأحبالِ ، و يُجَرجِرونه إلى مكانٍ مُظَلمٍ حَسِبْتَه سِجْناً ، أو هَكَذا بدا لي ، وألقوا به في تلك الغَياهِب لِسنواتٍ طوالٍ ..

-٢-

كان نورالدين يَسْرى بفَرسه كطائرٍ من اللهب في صَحْرواتٍ قَاحلة ، رمالها من رُءُوسِ أفْرَنجية ، بَيْنَما الفَرسُ يَدْهسها بِحَافِرَين من حَديد ذَوَيّ نَصْلين

كالسّيف يَذْبَحان مَنْ يَهوى تَحْتيهما . و الرّمال تتبدّل بدماء ، و كُلّما تَدَحْرَجَتْ رأسُ من فوقِ جَسَدها تُشْرِق الشّمسُ أكثر و أكثر ..

-٣-

وجهُ كَبيرُ عَابثُ غير مُفَسَّر المَعَالم ، حَسْبى أنّه لبَلدوين ، كان مُنْغَمساً بين يَدينِ مُدَنَّستَين بأوحَالِ تُشْبِه الدّماء ، و النّار تَحفُّ به ، تأكُل لَحْمه ، فَتُذيبه، بَيْنَما الماء يُصَبُّ فوق رأسِه كالمهل ..

-٤-

رَجُلُ يَجلسُ على مَقْعَد وثير ، يَملأه الزّهوْ بنفسه ، و النّاس فى بيت المَقْدِس يلتَفُّون به بالتودد و الرّياء ، و هُم يَهتِفون : أملريك يا ملكَ الملوك ..

صُورةُ مؤلمة

هَزيمةُ البَقيعة

فى ذَلك اليوم ، بَيْنَما النورانيون فى خيَامهم ؛ يَلتَمسون الدّفء و الرّاحة ، ويَغْسلون أنْفُسَهم بعَذب المياه المُتَجَمّعة فى أبار حَوْلَهم ، و السَكينةُ تَطوف حَوْلَهم كأسْراب الحَمام ؛ بَرَزَت من وراء الجبال الرّاسخَة على مَرْمَى البَصر راياتُ تَحْمِل صُلْباناً ، و الأغْبَرَةُ تتصَاعَد سُحباً كَثيفةً حَوْلَها حتّى كَادَتْ أنْ تَحجب ضوء الشّمس . فإنْتَبه الحَرَسُ إليهم ، و بَادَروا بالصّياح من مَسافَة غير قَريبة . و أدْرَك نورالدين حَقيقَة الخَطَر المُحْدق به ومَنْ فى مَعيَّته ، فأمَرَهُم بالرّكوب و الفَرار . لكنّهم لم يتَمكنوا من ذَلك ، إذْ خالطَهم جُنْدُ الفرنج قَبل أنْ يُطَاوِعهم أمرَهم ، فأمسوا كالأعْمَى فى ليلة لا بَصيرة فيها ، و صَاروا

مثل قَطيعٍ فى مَذْبَحته و لا يَملك أمرَ نَفْسه . و أمّا نورالدين فقـــد رَكِـــبَ فَرَسَه، و نَسى الشبحة فى رِجله ، فَنَزَلَ رَجلٌ من الأكْرَاد و ضَرَبها بسَـــيفه ، فقَطَعَها . و نَجَا نورالدين بنَفْسه ، بَيْنما ضُرِبَ عُنق الكردى بِسَيفٍ غَـــادرٍ ، فسَقَطَ رأسَه تَحْتَ قَدميه ، و هَوى ..

و صَارتْ السّماءُ تبكى رذاذها على أرضٍ كُلُّها حَمراء ..

الصورة الإحدى والعشرون

لَمّ الشّمل

عِنْدَما عَلِمَ نورالدين من عُمَلائه فى بيت المقدسِ أنّ أملريك - الملك الجديد - ينتوى الإغَارة على مِصْر ؛ أدْرَكَ مَدَى ما فى الأمرِ مـــن خَطَـــرٍ ، و أرَادَ أنْ يَصْرِف أملريك عن نِيَّته تلك ، فسَرَّب أخْبَاراً حَوْلَ شروع النورانيين فى غَزْو بلادِ الشـــام التّابعة لإمْرَةِ الفرنج . و لم يركن إلى ذَلك فحَسْـــب ، وإنّمـــا أرْسلَ إلى الأمراء النورانيين يَستَعْجلهم على الإنْضمامِ إلى جيشه . فسَارَ أخوه، قطب الدين مودود، آتياً إليه من الموصلِ . بَيْنما جَمَعَ فخرالدين قرا - حاكم كيفا - أعْوانَه ، و عَرَضَ عليهم الّذى أرَادَه نورالدين ، فسألوه عن عَزْمـــه ، فقال لهم :

* لقَد قَررت القعود ، فإنّ نورالدين قَد تَحَشَّف من كَثْرَةِ الصّوم و الصّلاة ، و هو يلقى بنَفسه فى المهالك .

فأيّدوه ..

و لَمّا كان الغَدُ ، رأوه يَتَجَهّز للمَسير ، فدهشوا لذَلك ، و سألوه :

* فارقناك أمس على حالٍ و نراك اليوم على حالٍ .

فقال لهم :

* إنَّ نورالدين قَدْ سَلَكَ مَعى طَريقاً إنْ لم أنجَدَه خَرج أهل بـــلادى عـــن طَاعَتى ، و انتزعوا الملك من بين يَدَىّ ، فإنّه كـــاتَبَ زُهّادُهـــا و عُبّادُهـــا والْمُنْقَطعين عن الدنيا ؛ يَذْكُر لهم ما لَقيه فى البَقيعَة ، و قد قَعَد كُلُّ واحـــــد من أولئك و مَعَه أتباعه ، و هُمْ يَقرؤون كُتُبه و يبكون و يلعنوننـــى ، فلَـــم أجـــد بُدًا عن المَسير ..

الطَريق إلى حَارم

الحصار... و هناك ، حَوْل أسْوارِ حَارِم - و كنوعٍ من أسَاليب التَّمْويـــه - تَنَاثَرت السّرايا النُّورانيةِ فى توزيعاتٍ مُحْكَمةٍ ، و نَصَبوا المَجَانيقُ .. ثُم تابعوا الزَّحْفَ إلى قلبِ المدينة ..

تحالف ... عنْدما عَلم الفرنجيون ما أقدم عليه نورالدين ، و أدْرَكوا حَقيقـــة الخَديعة التى أجْحَفَهُم بها ، فَزعوا ، و بَادروا بحشد قوّاتهم من شتّى البـــلاد التى تَخْضَع لإمرَتهم ، فأتوا فى جَلَبتهم . و كان البرنْسُ بوهمند الثـــالث - صَاحب أنطاكية - يَقودَهم ، و صَحبَه الكونت ريمونـــد مـــن طرابلـــس ، والقائد البيزَنطى قُسطنتين كولمان ..

و خَرَجَوا بجَلْجَلة أسْلحتهم و صَهيل خَيْلهم إلى حَارِم ..

خديعة ... ما لَبِثت قُوّات الفـــرنج أن بَرَزَت على مَقْرُبَة من حَارِم ، حتّـــى فَرَّ النورانيون ، و اختفوا فجأةً ، كما يبدو الطَّيفُ ثُم يَتَلاشى فجأةً ، و خَلّفوا بَعْض أغْرَاضهم فى اماكنٍ مُتَفَرّقة تَدُل عن تواجُدَهم الوَهْمى فى مَنْطقة ما ، وكان الفرنج يَتْبَعونَهم ، فكُلّما بَلَغوا مكاناً يَجدونَه خالياً إلاَّ مـــن بَعْـــضِ الأغْرَاضِ المُتناثِرَة .. هُنا أو هُناك ..

يأس ... وبَعْد مُلاحَقة طَالَت بلا جَدوى ، و بَعْد أنْ تَوغّلوا فى الصحـــــراءِ اللانهائية ، و صَعُبَ عليهم الرّجـــوعُ ، و بَعْد أنْ يئسُوا من ادراكِ النورانيين، و بَعْد ما نَفَدَت ذَخَائرهم ، و أجْدَبَت طاقاتهم ، آثَروا الرّجوعَ ..

و إذّاك لاحَ لَهُمْ فارسَانُ نورانيان من بَعيدٍ ، ثم اختفيـــــا فجـــأةً . فَـــإقْتَفوا أثرِهما..

مصْيَدةٌ... دونَما أنْ يُدْرِكوا .. تَوغّل الفرنج فى مُحيطِ الدّائرة النورانيـــــة ، وأمْسَوا بِذَلك مثل الجَرْذِ فى شبَاك صَيّاده ، و بَيْنَا هُـــمْ كَذَلِـــك ، إذْ هَبَـــطَ النورانيون من كُلِّ جَانبٍ ، و انْقَضُّوا عليهم كالصَّواعِقِ ، فأكثَروا فيهم القَتْل، و أطَاحوا بهم ..

ثم عَادوا إلى حَلَبٍ يُجَرجِرون قَادَتهم فى سَلاسِلٍ من حَديدٍ ..

عَوْدٌ لذى بدء

حَديثٌ مُزْدوج

حَدّثنى نورالدين قائلاً :

* بِذَلك حَدَث ما أرَدْته ، و مضَى أكلريك عن مصر ..

فقلت :

* هذَا أمر عَظيم !

فقال :

* كان شَاور أنفذ وزيراً للخَليفة العاضد فىمصر ، فنَازَعه ضرْغَام على الأمر ، فلَجأ شَاور إلىّ ، فأكرَمته ، و أعنته . لَكنّه غَدَر . و حَـــدَثَ مـــا سَـــأقُصُّه عليك...

رحيل قطب الدين

فى هذا اليوم السّاكن أغلَقَت الموصلُ عيونها حُزْناً و ألماً . و هَمَت دمـــوع النّاس بغَزارةٍ ؛ فقَدْ غَابَ نَجم قُطب الدين إلى الأبد . و أفَلَتْ عيونُ شَمْســه عن دُنيا البَشَر . فتَسَلل الطّمعُ من أسفَلِ أبواب القَلْعَة المؤصَدة على أشْباحِها ، و خَرَجَتْ إلى النّورِ لتُثير الرُّعب فى قلوبِ الأبرياء ..

بَعْد الرَّحيل

فلَمّا خَلاَ حُكْم الموصل ؛ رَكَنَ فَخرالدين عبد المسيح _ القَيّم بإمور الدولة - إلى نيّته فى المُلْك ، وأقَام كالحيَّة فى وَكْرِه ، حتّى أنْ واتته الأيّام ؛ فإخْتلا بالخاتون - زوجَة قُطب الدين و أم ولَده سيف الدين - و قال لها :

* أنا أعينكِ على أخْذ الموصلِ لولدك و لن يَصْعُب علىّ ذَلك .

فقالت له : و ما حاجَتك مُقابل هذا ؟

قال : أتَزوج منكِ فيصير الملك بيننا .

قالت : لك هذا على أن يكون الأمر لى .

.. و على ذَلك تَعَاهَدا ..

فى حَلَب

عندما انقَضَتْ أيّام الحَزَن فى بيتِ نورالدين ؛ دَخَل عليه عِماد الدين - الإبن الأكبر لقطبِ الدين - و قال له :

* إنّك أنت والد زوجتى و شقيق والدى، و أنت من الحِكْمةِ أقْرَب إلى النّاسِ

حتّى تحكم فيمن يصير حكم الموصلِ له .

فقال نورالدين :

* و أنت بقلبى كَولَدى . فَما هى حَاجَتك ؟

قال :

* إنّ فَخرَالدين قَد تَنمّر و فَرَضَ سَطوتَه على الموصِلِ ؛ يُؤيّد أخى لِصِغَرِ سِنّه ويتزوج من زوجَة أبى . و إنّى لأخشَى على النّاسِ من ظُلْمه .

فقال نورالدين :

* و أنا لى فيما أرَدتَ نَفْس حَاجَتك ،و اُقْسِم ألاّ أَدْخُل الموصِلَ إلاّ من بـــاب السِرّ .

فى الطريق إلى الموصل

و بَيْنَا سَارَالنورانيون فى طَريقهم إلى الموصِلِ ، خَشِيَ فَخْرالدين أنْ تُعَاجلَــــه نهايَته فيصير من الزّاهقين ، فأرْسَل إلى شمسِ الدين أيلدكز- صاحب هَمَذان- يستَنجدَه على النورانيين . فإستَجابَ له أيلدكز ، و أرسَـــــل إلى نورالديـــن يَنْهَاه عن الإستِمرارِ فى سَعْيه ، وكتب له يقول : إنّ هذه البلاد للسلطانِ فلا تقصدها..

فأجَابَه نورالدين بِكتابٍ يقول فيه : أنا أصْلَح لأولادِ أخِى مِنك ، فلا تُدْخِـــل نَفْسَك بيننا ، و عند الفراغِ من إصلاحِ بلادَهم يكون الحَديث مَعَـــك علـــى أبوابِ هَمَذان ، فإنّك قَد مَلَكتَ المملكةَ العَظيمة و اهمَلْتَ ثغورها حتّى غَلَبَ الكَرْب عليها ، و قَد بَليت أنا و لى رُبع بلادك بالفرنجِ ؛ فأخَذت بلادهم وأسَرتُ ملوكهم ، و لا يَحلّ لى السّكوت عنك ، فيجب علينا حفـــظ مـــا أهْمَلتَ ، و رَفع الظُّلم عن النّاسِ .

ثم أنّه حَاصَر الموصِلَ لأيّامٍ ، فأعْلَن أمراؤها عِصْيانهم لِفخرالدين ..
فَدَخَلها نورالدين من بابِ السرِّ ..

مُتتالياتُ من الصور

الأولى

.. يُروَى أنّ القُوّاتَ النورانية خَرَجَت بقيادةِ شيركوة ذاتَ ليلـــةٍ و عَـــبَرَت الصَّحراواتَ فى كُتْلةٍ مُتَماسكَة حتّى بَلَغَت صَحَراء سيناءِ فى شَمالِ مصْر ثم أنّها عَبَرت إلى الجَنوبِ حيثُ تَقَع الجيزَةُ من قلبِ المدينةِ و هناك أمْسَكت عن السيرِ لأيّامٍ طوالٍ ..

الثانيةُ

.. وأنّ الرَّهبةَ وليدة الضَّعْفِ قَد تَسَللتْ خلْسَةً إلى قَلبِ المَدعو شَاور بسَـــبب خيَانَته لكُلّ المَبَادئ العُليا فى سبيلِ مَصْلَحَتَه الذّاتية و أنّه أرْسَل إلى أمـــالريك يَستَعْجلَه لدخولِ مصْر فيُغيثَه من النورانيين ..

الثّالثةُ

و لَمّا أتى الرّسولان هيو و جفرى إجتازا صفـــوفَ الأعْمـــدَة و النّـــافورات والحَدَائق الغَضّة بحيوانات الزّينة و أنّهما أخَذَا يتَنَقلان بين القاعات المُحَـــلاّة بالسّتائرِ الحَريريةِ المُرَصَّعَة بالجَواهرِ حتّى انْفَرَجَت أمامهمـــا ســتَارةُ كبـــيرةُ مُزَركَشةُ بخيوطٍ من الذّهبِ الخالصِ فكَشَفَت عن الخَليفَة الصّبىَ العَاضد وهو يفْتَرِشُ سَريراً من الذّهب ..

و الأعيُن الدّيْدبان ظلّت يَقظَةً أثناء الليلِ و أطْرَاف النّهارِ تَرْقُـــبُ بَعضهـــا البَعض و هكَذَا مَضَى شَهْرٌ كاملُ و لم يَتَقَدَّم أحَدُ الفَريقين خُطوةً حتّى يَئِــسَ شيرْكوة من ذَلك الرّكود الطَويلِ و يَئسَ من شعوره بالعَجز الرّهيب و لَمّـــا كان ذَلك كَذَلك جَمَعَ أصْحابَه و استْشَارهم فيما يَجبَ عليه من العَملِ فقال له واحدُ منهم :

* الأجْدَر بنا أنْ نَعْبُر النيلَ إلى الجَانب الشّرقيَ و نَرجع إلى الشّام مثْلَما أتينـــا فإذا نَحن انهزمنا فإلى أين نلجأ و بمَنْ نَحتَمى و كُلُّ من فى هَذه البلادِ غَريبُ عنّا .

فقال أخَر و يُدْعَى شرَف الدين و هو من مماليك نورالدين :

* مَن منْكم يَخَاف القتال و الأسْر فلا يَخْدم الملوك و والله لئـــن عُدْنـــا إلى نورالدين من غيرِ غَلَبة و لا بلاء نُعْذَرفيه ليأخُذَنّ مالَنا من إقْطَـــاعِ و يَعـــودَنّ عَلينا بجَميعِ ما أخَذْنَاه مُنذُ خَدَمناه إلى يومنا هَذَا و يَقول لنَا تأخذون أمـــوالَ النّاسِ و تَفرُّون من عَدوهم و الحقّ بيَده .

فقال شيركوة :

* هَذَا هو الرأى و به أعمل .

و أنّه بَعد ذَلك أطلَقَ قيودَ نَفْسَه و حَثَّ جنُودَه على المُضى قُدُماً بلا تَرَاجُـــعِ فَكَسَروا حَواجز العَجْزِ و صَارَت الإنْتصَاراتُ تُلاحقَهم أيْنمَا ذَهَبوا حتّى أنّهم بَلَغوا ثَغرَ الإسكندرية و وَلّى صَلاح الدين عَليها ثُم مَضـــوا فى طَريقِ الكفاحِ حتّى الصّعيد ..و أجْلَوا الفرنج عن البلادِ بالرئوسِ مُنَكّسَة ..

لكنَّ هَوى مِصْر لم يَبْرَح صدورهم فتَركوا حاميةً لهم عِند أبواب المَدينة ولَكن بَعْدَ أنْ أرَادَ شَاور ذَلك ..

الخَامسَةُ

و أنَّ رجالاتَ الحامية الفرنجية كتَبوا إلى أملريك يَستَدعونَه لإمتلاك مصــــر و لَمَّا تَسَلَّم كتَابَهم جَمَعَ إليه فُرسَانَ الفئاتِ المُختلفة فأشَاروا عليه بدخول مِصْر لَكنَّه خَشيَ من ذَلك و قَال لَهُم :

* الرأى عندى أننا لا نَقصُدها فإنَّ صَاحبها و عَامَّة النَّاسِ هُناك لا يُسَلمونَها إلينا و يَحْمِلَهم الخَوف منَّا على تَسْليمها إلى نورالدين و إنْ صَارَ له فيها مثل أسدالدين فهو الهلاك لنَا و ضَربنا فى الشَّامِ فقال قائلُ منهم :

* ليس فى مصر من يَحميها و يُدَافع عنها و حتَّى يَتَجَهَّز نورالدين نكون نَحن قَد مَلَكنَاها .

و أصَرَّ الحضورُ على ذَلك الرأى و مَضَوا إلى غَزو مصر ..

السَّادسةُ

و بَين ليلة و ليلة تَغيَّرَت الأحْوالُ و طَفَقَ ذوو القلوب السَّوداء يَجوسون فى الأرضِ بدَنَسهم و يُعَربدون و هُمْ يَجولون بخيولهم بين البيــــوت يَضْرَبــون ويَسْــفَحون و يسْفكون و يَحْرقون فَمَا قَدُر أحَــدُ علـــى دَرءِ الأذَى عـــن نَفْسه و لا عن أهله و لا عن ماله و صَارَ كُلُّ شئ مُسْتَباح ..

السّابعةُ

و يُرْوَى فيمَا يُرْوَى أنَّ العَاضِد عندَما صَعُبَ عَليه الأمرُ و عَجَزَ عن دَرْء خَطَر الفرنج عن النّاسِ كَتَب إلى نورالدين يَسْتَصرِخَه و قال له (هَذه شعور نسَائى من قَصرِى يَسْتَغِثنَ بك لتُنقذَهنّ من الفِرنج) و لَمَّــا قَرأ نورالديـــن هَــذَا الكتاب لم يَستَطِع إمْسَاك دموعَه عن التَرقرُق و ليلتئذٍ لم يَنم حتّى سَيَّر خِــيرَةَ فُرْسَانَه إلى شيركوة فى مصر ..

الثّامنةُ

و أنَّ النورانيين صَاروا مَرَدَةً لا يُعوِّقهم عائقُ و أنَّهم جَعَلوا يَضربون بسيوفهم السِّحرية عن الأيمنِ و عَن الأيسرِ يُطوِّحون الأرؤس من فـــوقِ أجسَــادها و يَنْزعون أفئِدَة الكُرْه فَتَنْزِع بوَخْزِ الصّدورِ و الأيَّام تَسْرِى مَعَهم من ظَــلامٍ إلى نورٍ حتّى انقَشَع لَيلُ الألمِ و رَجعَ الفرنجُ بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ يُجرجرون آلامَهـــم و خِزيهم وراءهم جبَالاً ثِقَالاً ..

التّاسعَةُ

و شَاور لم يَهدأ و لم يَكُفّ عن مُلاَحَقة النورانيين و أمْسَى فــؤادَه مُتَحَجِــراً مُتَصَلّباً من شدّة ما به من إحَنٍ لا سيَّما بَعد زوال شــيركوةُ من دُنيا النَّـــاسِ فقدَ ظَنَّ بذلك أنَّ الدَّربَ أُفْسِح لَه يَجْمَح فيه كما يَتراءى له و يُطْلِق نَفْسَــه تَميدُ فى هَواه بين عَرْشِ مصْرَ و ثَرَواتها و بَيْنَما هو شَــارِد فــــى هَــواه إذْ عَاجَلَته ضَرْبةُ من سيفِ صلاح الدين فأرْدَتَه قتيلا فى دمائه ..

و هَكَذا هَدَأت العَاصفةُ و أدْرَك العَاضَدُ راحةَ قَلبه إذْ أنّ زوال شَبَح شَاور من ذَلك الوجود قَد بَعَثَ الطمأنينةَ إلى حَيَاة النّاسِ و لا سيّما هو نَفْسَه ثُم أنّه أرادَ بَعْد هَذَا أنْ يُؤمّنَ جَانبَه من قِبَلِ النورانيين فأسْنَد أمرَ الديوان إلى أصْغَر الأمراء سنّاً و رُغْم حَدَاثَة عُمْر صَلاح الدين إلاّ أنّ طموحَه كان سَبّاقاً فَلَم يَدَع فُرْصَةَ تَمُرّمن بين يَدَيه حتّى أمسَكَ بطَرَفيها و سَيّرها لِصَالحَه فإسْتَمال إليه قلوب النّاسِ و مالوا إليه ..

الصورة الثّالثة و العشرون

تَثْبيتُ الخُطا

بَعْد تلك الهَزيمة التى لحقَته فى مصر بَدَا أملريك ثائراً بغَيرِ رَوّية ، و كان كُلّما مَرّت به الأيّامُ يزدَاد هَيَاجاً ، و يَتَضَخّم ثِقَل الهَزيمة فى رأسه المَشْبوب بخَيالات شَيطَانية. و هَكَذَا عَاشَ أيّاماً فى ظَلام نَفْسَه ؛ لا يكادُ يَرَى غَير غَيّه و لا يكادُ يَسْمع إلاّ أصوات شَيَاطينَه الآتية من جَحيمِ نهَايَته ؛ تلك التى حَرّضَته على الإنْتقَامِ ، و دَفَعَته إلى المُضى بحَملة جَديدة إلى دمياط مصر ..
فَلَمّا عَلمَ صَلاح الدين بنَبأ تلك الحَمْلَة الرّهيبة شَعَرَ بالرّهبة تُهَدهده ، فأرسَل إلى نورالدين يَسْتَنجدَه و قال له (إنّى إنْ تأخرت عن دمياط مَلَكها الفرنج ، و إنْ سرت إليها خَلفنى النّاسُ فى أهلها بالشّر و خَرَجوا عن طَاعَتى) ..
و بَعْد أنْ قَرَأ نورالدين تلك الرّسَالة لم يُبْد غير الّذى أبْدَاه قَبل ذلك مع سائرِ الأمراءِ النورانيين فأرسَل إليه نَجْدَةً من قوّاتٍ مُتتالية ..

الجَوادُ الحُرّ

و ذَات مَسَاء بَعد صراعٍ مع المَرَضِ ؛ أغْمَضَ العَاضدُ عَينيه إلى الأبَد ، و كان لا يَزال صَبياً . فَخَلِيَ الدَّربُ لِصَلاح الدين يَركُض كالجَوادِ ما وَسِعَه المَدَى ، فأطلَق قيود نَفْسه ..

الجُموح

و صَارَت الإمْرَةُ له فى مصْر . و صَارَ النَّاسُ يُذْعنون لإرَادته عن رَغْبة فــى ذَلك لا رَهْبةً منه . و أمْسَى ذا شَأوٍ يَكبُر كُلَّما كَبُرَ هو عَند النَّاسِ . فــأيَّده نورالدين ، و أخَذَ يَشُدّ أزْره حتّى انْتَفخَ و اعْضَلَ . ثُم أنَّه لَمَّا أدرَك القُــدْرَةَ فى نَفْسه مَضَى بكُلّ جَوارحه مُتَتبعاً أثَر الفرنج . و صَارَ النّصْرُ له حَليفــاً ، حتّى بَلَغَ حِصنَ الشوبك ..

و فَرِح به نورالدين ، و رَغِبَ فى مُعَاونَته ؛ فأرسَل إليه يُعْلمه عن رَغْبَته فــى المُضِى مَعَه فى نَفْسِ الإتجاه ؛ فَيَتِم التَلاقِى بينهما و تتحدُ قُوّاتهما ..

غير أنَّ صَلاح الدين أبْدَى قَلَقاً فى غيرِ مَحَله ، و تَردد ، ثــم جَمَــع أهلــه وخَاصتّه و قال لهم :

* إنَّ نورالدين يَرغَب فى اللحاق بنَا عِند بِلادِ الفرنج ، فَما هو رأيكم ؟

فقال أحَدُهم :

* إنْ دَخَلَ نورالدين بِلادَ الفرنجِ و هُمْ على هَذهِ الحال ، أنتَ من جانبٍ وهو من جانبٍ ، مَلَكها هو ، و متى زال الفــرنج عن الطريــقِ ، و أخَــذَ هــو مُلكهم لم يَبقْ بِدِيارِ مِصر مُقَامٍ مَعَه ، و إنْ جَــاءَ هو إليك ، و أنتَ هَهنا ،

فَلابدّ لك من الإجتماعِ بهِ ، و حينئذٍ يكون هو المُتَحَكّم فيك ، و الرأى فـــى الرّجوعِ .

و لَمَّا سَمِعَ صلاح الدين ذَلك شَعر بالرَّهبةِ تَسْرى فى جَسَدِه ، و خَشِىَ على مُلكه الوليد ، فَرَفَع حَصَاره عن حِصنِ الشوبك ، ثم كَتَبَ إلى نورالدين يَعْتَذر بإخْتلال البلاد المصرية ..

و عندَما قَرأ نورالدين تلك الرِّسَالة أَحَسَّ بوخْزِ الألمِ و طَعن الغَدرِ فى سويداءِ قَلبهِ الّذى يَنبضُ حُبَّ النورِ .

غَدْرُ

و لَمْ يُسْلِم نورالدين الأمرَ للأيَّام تَعْبَث به كيفما تَشَاء و يَشَاء هَوَى الطامعين، و إنّما ظَلّ على دَرْبه ؛ لا يَحيدُ و لا يَتَهَاون مَع أصْحَابِ الهَوى ، و انْتَـــوى أنْ يَنْزِل إلى مصر عندَما تَحين له الفُرْصَة ..

و عَلِمَ صَلاح الدين بحَقيقةِ سَعْى نورالدين و نيَّته ، فَكَادَ أنْ يُصَاب بالجُنون ؛ إذْ لَم يكن ذَلك بالأمرِ المُسْتَحب إلى نَفْسهِ ، فَمَلكته الهَوشَةُ ، و أخَذَ القلـــقُ يؤرِّقُ مَضجَعه لأيَّامٍ طوالٍ ..

و لَمَّا استَبدَّ به الخَوفُ ؛ جَمَع أهله ، و كانَ أبوه نجم الدين أيوب ، و خَاله شهاب الدين من بينهم ، و أعْلَمهم بِنيَّةِ نورالدين ..

فَنَهضَ تَقِى الدين عُمَر و قال :

* إذا جَاءنا قَاتلناه و مَنَعناه عن البلاد .

فَغَضبَ نَجم الدين و صَاحَ قائلاً لِصلاح الدين :

* أنا أبوك و هذَا خـــالك مِثلى ، و نَحن أكثر مَحبّةً لك من جَميعِ من تَرى،

والله لو رأينا نورالدين لم نَمكث إلاّ أنْ نُقتل بين يديه ، و لو أَمَرَنا أنْ نَضرِب عُنقك بالسيف لَفَعلناه ، فإذا كُنّا نَحن هكَذا فما ظَنّك بغيرنا ؟

و على ذَلك تَفَرّق الأمراءُ ..

فَلَمّا خَلا لهما المكان قال له أيوب :

* بأى عَقلٍ فَعلتَ هَذَا ؟ ألا تَدرى أنّ نورالدين إذا سَمِع عَزمنا على مُحَاربته جَعَلنا أهمّ الوجوه إليه ، وحينئذ لا نَقوى عليه ، و الرأى عندى أنْ تَبعَث إليه، و تَقول له (بَلَغَنى أنّك تُريد الحَركة لأجلِ البلاد ، فأى حاجـــة إلى هَـــذَا ؟ يُرْســل المولى رَسولاً يَضَع منديلاً فى رَقَبتى ، و يأخذنى إليك ، و ما ههنـــا من يمتنع) .

فَفعل ذَلك ..

فَتركه نورالدين و انشَغَل بالفرنج ..

لَكنّهما تواعَدَا على مُعَاودة الإغَارة على بيتِ المقدس..

وقوع الوَحْشَة

و لَمّا حَانَ الزّمنُ المُحَدّد بينَهما ؛ سَار نورالدين بقوّاته حتّى الرّقيم ، و أمسَكَ بالقُرب من بيتِ المقدس . و هناك ، حَيْثُما تواعَدا ؛ أخْلَفَ صَـــلاح الديـــن بوعْده ، و أرْسَلَ رَسولاً عَنه يَعْتَذر عن الإسْتمرار بتَدهور صحّة أبيــــه فـــى مصر.. و على الرُّغم من أنّ نورالدين قَد استَدرَك بحدْثه السبب الحقيقى لعَدم التزام صلاح الدين ، إلاّ أنّه لم يبدِ تأثرَه بذَلك ، و قال للرسول :

* حفْظُ مصر أهمّ عندنا من غَيرها .

لكنّه أبَاتَ النيّة على خَلْعِ صلاح الدين ..

الرَّحيلُ

... ذَات يَومٍ من أيَّام الرّبيعِ الصَافية ، كان الصُّبْحُ فيه نَديّاً مُشرِقاً ؛ رَكِبَ نورالدين و أصْحَابهُ يَجوسون خلال الحَدائق ، و يلتَمسون صَفَاءَ الطّبيعة الرَّائقة ؛ التى تَبْعَثُ فى الرّوْحِ شعوراً مميزاً ، شعور لايَمسُّ النّفْسِ إلاّ فى مثلِ هَذه الفترة من السّنة ..

لكنَّ نورالدين لم يَشْعر رُغم ذَلك بالدِّفء المَنْشُود ، و إنَّما كان يُحْدسُ شَيْئاً آخَرَ ، كانَ إحسَاسهُ بالنّور أقوى ، و الملائكةُ تَحفُّ به من كل جَانب ، كان يَرى بعَينيه ما لَمْ يَرَه أصْحَابه ، و يحسُّ ما يَعْجَزون عن إدرَاكه ، لذا فَهُم لم يَفْهَموا كَلماته التى أخَذَ يَفوه بها ، وكُلّ حَديثه صَارَ غَريباً فى غيرِ مَكانه ، وهو لا يزال يقول :

* لقَد عشْتُ ما قُدِّر لى فى تلك الحَياة الأرضية ، لَكنّى لَم أسْعَد بها ، وكنت و لا زِلتُ أدهش كُلّما تَذكّرت سَعى النّاسَ فى طَلَبها ، إنّهم يُهْلكون أنفُسَهم فى الإبقاء عَليها ، لَكنّها وَهْمُ لا يَخْلَد لأحَد منّا ، هُمْ يَجمحون عن الهَدف المُبَاح ، ويَقْتَفون أثَر اللذّات ، و يَجمَعون من الأموال ما يَجمَعون ، ثُم أنّهم يَزولون بَعد ذَلك و تَزول مَعَهم أحْلاَمهم التى عاشوا فى سَبيلها ..

ثُم أنّه أرْسَلَ ضَحكاتَه حتّى كادَت جَلْجَلَته أنْ تَهزّ الغَابةَ بِأسْرِها ..

و كان أصْحَابَه يَسْتَغربون ذَلك منه ..

لَكنّه أضَافَ بِهدوءٍ :

* لا بَأس ! لا بَأس ! تلك حَياةُ لا قِيمة لَها إلاّ فيمَنْ قَصَدَ الخَير فيها ، الخَــير لِذَاته ، و لا أكثر من ذَلك ..

و لَم تَنْقَضِ بَعد ذَلك اليوم سِوى بِضْعُ أيَّامٍ قَضَاها مَع الألم إثْرَ نوبة الخَوانيـــق التى دَهمته فجأةً فأبْقَته رَهنَ حَياة تُسْلِم أخِر زَفَرَاتها ، حتّى سَـــقَطَت أخِـــر أوراقه ..

فتحَوّلَ إلى طَاقَة تَسبَّح فى النورِ العُلوىَ ..

عَوْدُ لذى بدء

الإنفصَالُ

أحسُّ فَجأةُ بأنَّ نوراً يَنسَلِخ منّى ، أتألم ، أُرْسِلُ انتفَاضَةً مُرَوِّعَةً ، أدُوْر فـــى الأفقِ دَورَانَاً سَرِيعَاً سَرِيعَاً ، ما بين الظَّلامِ و النّورِ أتَخبَّط ، أهْوِي من أعْلا إلى أسْفَلٍ ، أصْطَدِم بشَيءٍ شَدِيد الصَّلابة ، أستَفيق من تلك الإغْفَاءةِ الطويلة ...

فى الحَاضِر

أفْتَح عَيْنىّ كَدُمية غَير مُدْرِكَة ، ألْمَح الرّواقَ فَوقِى ، ألْتَفت حَوْلى بدَهشَـــة ، هِىَ هِىَ ؛ نَفْس الغُرْفَة اللعينة ، كَادَ الفَقْرُ أنْ يُحيلها قَبْواً ، أرْسِلُ تَنْهِدَةً من يَمِّ الفؤاد المُعْتَلّ ، أهَمِسُ :

* ياله من حلمٍ جميلٍ !

أزيحُ الغَطَاءَ المُتَهَالك عَنّى ، أنْهَضُ من الفراشِ ، أتَحَرَّك فى الغُرْفَة حَــــائراً ، قَلقَاً ، أُشَـــغِلُ المِذْياعَ الكائن دَاخِل صندوقٍ خَشَبىَ مُعَلّق علـــى الجِـــدارِ . يَنْطَلق صَـــوتُ المُذيعَ .. (و فى الأرضِ المُحتَلَّة قَامَت القُـــوّاتُ الإسْـــرائيلية بقتلِ اثنينِ إثْر عبوَّةٍ مُتَفَجِّرَة و أُصيبَ ...) . أهْمِسُ :

* نَفسُ الأخبارِ !

و أُغْلِقُ المذياعَ ..

أشْعر فجأة بالإختناقِ ، أبْحَثُ عن هواءٍ نَقِيٍ ، أفْتح النّافِذةَ ؛ مُنْذُ شهورٍ لَـــمْ تُفْتَح..

أنْظُر من النّافِذة .. النّاسُ هُمْ النّاس ، يَجيئون .. يَرُوْحون .. هَكَذَا هُمْ .. ما من أحَدٍ يَهْتَم بِغَيْرِ نَفْسه ، و البائعون يَجولون الشوارِع بالصياحِ مِثْلَما ألِفنَاهُم في الصِغَرِ و الكِبَرِ .. أهْمِسُ :

* لا شَيْء يَتَغيَّر !

أُحِسُّ بالصُداعِ يَلْتَهِم رأسِي - كعَادَته مَعِي - فأعود إلى الدّاخِلِ ، أتَنَــــاولَ قُرْصَاً من الدّواءِ ، و لا فَائِدَة ..

أجلِسُ على مَقْعَدِي المُسْتَحبّ إلى نَفْسِي ، قُبَالة المَكتَبِ المُسْتَحبّ إلى نَفْسِي ، أمْسِكُ بالقَلَمِ المُسْتَحَبّ إلى نَفْسِي ، أكتُب .. (العَودةُ و النمائل ..

أقلِب الصّفحةُ ، ثُم أكتُب ..

... لايزال القلب راجياً لظلال الأيام الخوالى . والعقل ساعياً للانفلات من قيود زمانه . لكن المستحيل فى إدراك ذلك الواقع البعيد ملموساً . والأجدر بنا أن نعود بالصورة والذكرى معاً فى الإتجاه المعاكس ...

- فى البدء -

رقم الإيداع ٢٨٦٧ / ١٩٩٨
ISBN : 977-19-5387-7



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالي (المجوزة) الجيزة - ت/ فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩